الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٣ — ٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥٧ — أول يونية سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
٤٥٨	التمثيل	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود بك تيمور
٤٦٥	قلب أم	للقصصى الدانمركى اندرسن	بقلم الأديب صلاح الدين المنجد
٤٦٩	لقد أحضرت التركية	للكاتب الفرنسى تيودوردى بانفيل	بقلم محمد عبد الفتاح محمد
٤٧١	الوالد	للقصصى الفرنسى موباسان	بقلم الأستاذ على الطنطاوى
٤٧٧	سر الخفية الصفراء	للكاتب الروسى سيدريك ديتروف	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة
٤٨٩	صلاح الدين	للقصصى الايطالى بوكاتشو	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج
٤٩٥	المرأة المدبرة	من القصص العربى	بقلم الأستاذ محمد فهمى عبداللطيف
٤٩٧	حاجى بابا فى انكلترا	تأليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار

البديل

أقصوصة مصرية

للأستاذ محمود تيمور

نشأت يتيم الأب والأم ، أعيش مع عمى فى منزل الأسرة بحلوان . وكنت أبلغ من العمر العاشرة عند ما وقعت هذه الحادثة التى أرويها . وقد أخبرونى أن أبى قد مات وأنا رضيع ؛ أما أمى فقد توفيت ولى من العمر أربعة أعوام ؛ فلا أذكر منها إلا طيفاً خفيفاً ، قليلا ما زارنى وسرعان ما اختفى . وكانت تعيش معنا سيدة تدعى « الست عيوشة » من أقارب عمى ، ولم تكن بالمرأة المحببة إلى . هى نحيفة طويلة ، صموتة جافة الطبع ، لها نظرات كريهة وابتسامة خاطفة تبعث الاشمئزاز فى النفس

وكان عمى يعاملنى بشدة ، ولكنه يشعرنى بعض الأحيان بشىء من العطف . وكنت أخافه وأكره منه غلوه فى التحفظ ، ودقته البالغة فى النظام . بياع الستين ، مديد القامة ، حاد النظرات ، يسير فى خطوات عسكرية متثاقلة ، يلتزم فى حياته نظاماً دقيقاً لا يحيد عنه ؛ فلا أتذكر أنه تأخر مرة عن موعد الأكل ، وإذا حلت العاشرة مساء وجدته أمام مكتبه غارقاً فى أبحاثه القضائية

كنت فى ذلك الوقت فى مستهل الإجازة الصيفية أقضى يومى ، إما فى حديقتنا الصغيرة ، أتسلق الشجر مع أولاد الجيران ، أو ألعب بالكرة معهم وبينما كنا نلعب ذات يوم بالكرة أمام الدار ، إذ رأيت سيدة تخترق الشارع ؛ فلما رأتنا نتقاذف الكرة ، وخشيت أن يصيبها منها أذى ، سارت على الرصيف بجوار الحائط متجنبة مرماها . كانت حسناء فى مقتبل العمر ، ذات شعر أصفر يلمع لمعان الذهب ، تجذب الأنظار بأناقتها وزينتها ، وتمسك بعصا فى يمينها تعبث بها بمنة ويسرة

وما هى إلا أن قذف أحدهم الكرة فانطلقت صوب السيدة ، وكادت تصيبها لولا لحاق بها ، وتحويلى سيرها . ونظرت إلينا السيدة نظرة بين الغضب والعتاب ، ولكن ما كاد بصرها يقع على حتى توقفت عن المسير وأخذت تلاحظنى ، ثم ابتسمت لى فى رقة ، فلم آبه بها ، واستأنفت لعبى ، ورأيتها واقفة مكانها بضع دقائق تتبعنى بنظرها المشغوف حيثما تنقلت

وفى مثل ذلك الوقت من اليوم التالى ، رأيت سيدة الأمس تسير على مقربة منا فى خطوات متمهلة ، فما إن وصلت إلى شجرة على جانب الطريق حتى وقفت فى ظلها ترقبنا ونحن نلعب ، وشمرت بها تخصنى — دون رفاقى — بنظرتها . وبعد برهة لمحتها تشير إلىّ بيدها تستدعينى إليها ، فلم أستجب وواصلت لعبى . وظلت السيدة تلاحظنى فى اهتمام ؛ فضايقتنى هذه الملاحظة بعض المضايقة فارتبكت ، وهجم على وقتئذ زميل أوقعنى وانتزع الكرة منى ، ورأيت السيدة تهرع إلىّ ، وتساعدنى على النهوض وتنفض التراب عن ملابسى ، ثم انتحت بى ناحية وسألتنى :

— هل أصابك ضرر ؟

فأجبتها : كلا !

وأخذت تدقق النظر فى ثم قالت :

— يا لله ! أنت مجروح !!

— مجروح !

— جرح خفيف ، خفيف جداً تكدش الدبوس

وكان صوتها موسيقياً عذباً أطربنى ، فأصغيت لها . وأخرجت منديلها ، وأخذت تمسح جرحى ، وتجفف عرقى ، فانبعث من المنديل عطر جميل أنعشنى وقالت لى :

— أأنت الآن أحسن حالا ؟

— لم لا أكون أحسن حالاً وأنا لم أصب بضرر ؟ !

فابتسمت . وشعرت بأن إجابتى كانت جافة ، ورفعت بصرى إليها ، فوجدتها تحدق فىّ ، وقد بدا عليها حنو غريب ، فاحتاج قلبى وقلت :

— نحن نلعب بالكرة دائماً ، وكثيراً ما وقعنا

— أين تسكن ؟

— هنا

وأشرت إلى منزلنا وجعل أحد رفاقى ينادينى :

— واصف ! واصف !

فقالت السيدة :

— أهو اسمك ؟

— نعم

فانحنت على جبينى تقبله ، وأمرّت يدها على رأسى تلاطفه ، ثم قالت :

— انطلق إلى أصدقائك يا حبيبى .

وانطلقت ألعب . أما السيدة فشيعتنى بنظرة طويلة ، ثم تابعت سيرها بطيئة الخطا .

وفى المساء اجتمعت كعادتى بعمى و « الست عيوشة » على مائدة العشاء . وكان الصمت مخيما علينا ، كشأننا فى كل ليلة : « الست عيوشه » فى جلستها العسكرية لا يفارق وجهها الطبق ؛ تتحرك كأنها آلة بزنبرك ، وعمى بملامحه الصلبة ، ورأسه المرفوع ، لا تغادر عينه الجريدة ، ولا يبادلنا حرفاً . . . وأخيراً نظر إلى الست عيوشة وقال لها .

— أسمعت بجارتنا الجديدة ؟

فتقلص وجه الست عيوشة وقالت ، وجسمها لم يتحرك قيد أنملة :

— أى جارة تعنى ؟

فابتسم عمي ابتسامته النكراء ، وقال :

— جارتنا الجديدة التى سكنت منزل المرحوم « رؤوف بك » فى الشارع المجاور لشارعنا ! !

وصمتت الست عيوشة كأنما أخجلها أن يغيب عنها هذا الخبر . فقال عمى :

— يظهر أنك لست من أهل هذه الدنيا . إن خبرها شاع وذاع فى حلوان .

فقالت الست عيوشة : وما أمرها ؟

فأجاب عمى ، وما تزال على فمه ابتسامته النكراء :

— إنها جاءت من الاسكندرية لتنشر فى هذا البلد الصغير وباءها ؛ — وباءها المهلك المبيد ! !

فجحظت عينا الست عيوشة ، ولكن رأسها لم يهتز ، وقالت :

— أمريضة هى ؟

— وأشد من مريضة . . . ! إنها من النوع الهدام الذى يخرب البيوت ، ويقوض سعادة الأسر . إنها . . . إنها ، ألا تفهمين ؟ !

— . . . فاهمة ! !

— سمعت أنها كثيرة التبرج ، ولها شعر أصفر لابد أنه مصبوغ . . .

— مؤكد إنه مصبوغ ! !

— وقد رأوها تسير بعصا فى الطريق .

— كيف ؟ أعجوز هى ؟

— أجهل عمرها .

— لابد أنها تخفى سنها تحت طلاء المساحيق الثقيلة . . . يا لله : . . . ! ما أبشعها . . . ! !

وكان قلبي فى أثناء ذلك يدق دقاً عنيفاً ، ووددت لو تمكنت من وقف هذا الحديث . وسمعت عمى يقول :

— أرأيت سيدة تسير بعصا فى الطريق ! ؟

فقلصت الست عيوشة فمها مستنكرة ، وصمت عمى برهة ثم تكلم فى حزم وتشدد قائلا :

— أحرم عليكم مقابلة هذه المرأة ، أو اتصالكم بها ! !

فقالت الست عيوشة وقد زوت مابين حاجبيها :

— معاذ الله أن نتصل بهذه الفاجرة !

وقبل أن يترك عمى الحجرة ألقى على نظرة حادة ، كأنه يقول لى : أفاهم أنت ؟

وعند ما استوثقت أن عمى صار بعيداً عنا قلت للست عيوشة :

— عجيب أن يتحامل عمى على هذه السيدة مع أنه لم يرها ! !

— وما شأنك وهذا ؟ أرأيتها أنت ؟

— أنا ! أبداً . . . ولكن خبريني ، إذا حدث مثلا أني رأيتها تسير فى الطريق الذى أسير فيه ، فماذا أفعل ؟

— تمهل ريثما تخلى لك الطريق .

— وإذا رأيتها تقترب منى وتحاول أن تكلمنى ؟

فرمقتنى الست عيوشة بنظرة فاحصة ؛ فاختلج قلبي ، ورأيتها تبتسم بغتة ابتسامتها الشيطانية وتقول :

— أراهن أنك رأيتها وكلمتها . . .

فانطلقت أنكر فى تحمس ؛ ولكنى أحسست بأن إنكارى ضعيف ، وأن صوتى يخذلنى ، ورأيت نفسى بعد حين أقول للست عيوشة :

— أقسم بالله العظيم أنى لن أراها ، ولن أكلمها بعد اليوم . لا تخبرى عمى بشىء

وتشبثت بجلبابها مسترحما ، فوقفت صامتة تحدجنى بنظرها البغيض ، ثم سارت متئدة الخطوات مرفوعة الرأس إلى حجرتها .

وانقضت ثلاثة أيام لم أخرج فيها إلى الشارع تفاديا لاحتمال مقابلتى تلك السيدة . أما عمى فقد ذكرها مرة أخرى ونحن على المائدة ، فى حديث مقتضب كله سخط وثورة ، فآلمنى ذلك منه ، وعجبت لهذا الرجل الذى يزج بنفسه فى كل أمر ، ويريد فرض سلطانه على كل إنسان .

وفى اليوم الرابع خرجت إلى الطريق يدفعنى أمل غامض إلى لقائها ؛ وتجاهلت ما أمر به عمى ، بل شعرت بشىء من الزهو والسرور فى تحديه ، وأخذت أروح وأجىء أمام المنزل أرقب ظهورها . ولما طال انتظارى ولم تحضر ، سرت إلى الشارع المجاور حيث منزل « رءوف بك » الذى تسكنه . فلما اقتربت من بابه وقع نظرى عليها فى الحديقة ، وكانت

تقطف الأزهار ؛ ووقفت أمام الباب ساكنا ، أنظر إليها وأنا مفتون بجمالها ، ذلك الجمال الذى يغمر قلبى بحنوه وعطفه وطيبته . كانت تتنقل بين شجيرات الورد فى فستانها البديع ، وشعرها الأصفر يتموج حول رأسها ، فيخيل إلى أنى أشاهد ملكا من سكان السماء .

ولأمر ما ، لفتت وجهها ناحية الباب فرأتنى . ولشد ما كانت فرحتها ! فألقت بزهرها على الأرض وهرولت إلى وهى تقول :

— واصف ! تعال . ادخل ياحبيبى ، أدخل .

وحوطتنى بذراعها وقبلت رأسى . يالله من ذلك الشعور الغامض اللطيف الذى أحسست به فى تلك اللحظة !!

وأخذت بيدى ودخلت بى الحديقة ، وجمعت ما انتثر من أزهارها ، وقدمته إلى وقالت !

— اختر لك منها ما يحلو .

وأخذت تساعدنى فى اختيار أحسنها ، ثم قدمت إلى الصحبة وهى تقول !

— هى لك ياحبيبى

وكان فى الحديقة دكة فجلست عليها وأجلستنى بجانبها ، وجعلت تحدق فى وجهى طويلا وتمسح رأسى واكتسى وجهها بالحزن ، ورأيتها تمسح عينيها بحركة خفية ثم قالت :

— لماذا لم تلعب بالكرة مع أصحابك فى ثلاثة الأيام الماضية ؟

فطأطأت رأسى وقلت :

— كنت متوعكا قليلا ... ولكن ، من أخبرك بأنى لم أظهر فى هذه الثلاثة الأيام ؟

— ذهبت بنفسي حيث تلعبون .... وكنت أنتظرك كل يوم .

فعجبت من هذا الاهتمام وشعرت بشىء من الخجل ... ووقع بصرى فى هذه اللحظة على باب الحديقة ، فتذكرت أمرا أشعرنى بخوف ، وتلفت حولى فرأيت « كشكا » بعيدا عن الأنظار ، فرفعت بصرى إلى السيدة وقلت لها :

— ألا يمكننا أن نجلس فى هذا الكشك بعيدين عن الباب ؟

فابتسمت لى ابتسامة لطيفة وقالت :

ما رأيك فى أن ندخل المنزل ؟ ... لدى شىء أريد أن أريك إياه .

وقامت وهى ممسكة بيدى ، وسارت بى إلى المنزل وأنا طائع ، وأجلستنى فى الردهة الداخلية فاذا بها حسنة التنسيق بديعة الأثاث ، مزينة بصور كثيرة ، وفى ركن من أركانها « بيان » كبير . وعادت السيدة بعد قليل تحمل صندوقا جميل الصنع عليه نقوش طريفة ، وفتحته أمامي فوجدته يحوى مجموعة منوعة من الحلوى اللذيذة الغالية الثمن ، وقالت لى وهى تقدمه إلى :

— كل ما تشاء منه ، ثم احتفظ به لك

فعظم الأمر علىّ وقلت متلعثما :

— كلا . هذا كثير !

فوضعت الصندوق على ركبتى وقالت :

— إذا لم تأخذه ساءنى ذلك منك

— ولكن ...

وأخرجت قطعة من الحلوى وقالت لى :

— إفتح فمك ! إفتح !

وفتحت فمى فرمت بالقطعة فيه ، وأخذت

تضحك ، فانطلقت أضحك أنا أيضاً ، وبعد أن أكلت القطعة قلت لها بلا تردد :

— سأحتفظ بالصندوق لئلا أكدرك ، ولكنى سأبقيه عندك ، وسآخذ منه كل يوم ما أحتاج إليه

فنظرت إلىّ مليا ثم قالت :

— إنهم سيسألونك بلاريب عمن أعطاك إياه . فانى أن أفكر فى ذلك

ثم صمتت برهة وهى تحدق فىّ وقالت :

— أتحب عمك ؟

— أحبه قليلاً ، ويحبنى قليلاً !

— والست عيوشة ؟ !

— لا أحبها ولا تحبنى

ونظرت إليها مدهوشاً وقلت :

— أتعرفينهما ؟

فقالت فى لهجة طبيعية :

— وهل من الصعب أن يعرف الجار ما يهمه عن جاره ؟ ... تعال

وقمت إليها ، فذهبت بى إلى « البيان » وجلست على مقعده ، وأجلستنى على ركبتيها ، واحتضنتنى باحدى يديها ، وأخذت يدها الأخرى تنقر نقراً خفيفاً على « البيان » فيصدر عنه نغم هادئ لطيف ، وأحسست بفمها يلمس رأسى ويقبل شعرى ، ثم قالت فى صوت موسيقى هادئ :

— كان هناك طفل يسألنى دائماً أن أعزف له هذا النشيد ، وأن أغنيه له . طفل جميل كان يحبنى وأحبه ، فجاءنا ليلة زائر كريه ممقوت يلبس السواد ، مقنع الوجه بقناع حالك وانتزعه منى ، ثم خرج به إلى الظلام واختفى ...

فسألتها وأنا أحدق أمامى :

— وأين ذهب الزائر بهذا الطفل ؟

فأجابت فى صوت مختلج النبرات :

— ذهب إلى حيث لا يعود الناس ... ذهب إلى آفاق نائية ، سنذهب كلنا إليها يوماً ولانعود...

وتابعت كلامها ويدها تنقر على « البيان » هذا النغم الهادئ اللطيف

— سأغنى لك هذا النشيد عله يروقك ، كما كان يروق ذلك الطفل العزيز . كنت دائماً أجلسه هذه الجلسة ، فأحوطه بذراعي ، وألمس شعره بفمى ، وأملأ صدري بعبير شعره الذهبى ... اسمع . اسمع

وأخذت تغنى الأنشودة فى صوت عذب حنون ، وتنهات « البيان » تصاحبها فى تناسق جميل فيتكون من امتزاج الصوت بالعزف وحدة تامة حتى ليصعب على السامع أن يفرق بينهما ، فيخيل إليه أن « البيان » هو الذى يغنى ، أو أن السيدة نفسها هى مصدر ذلك النغم ، تعزفه بلا كلام على أوتار قلبها !

أى شعور هذا الذى كان يغمرنى فى ذلك الوقت ؟ شعور عذب شجى باطمئنان هادئ لطيف ؛ شعور أثار بين جوانحى ذكرى محببة لمشاهد منزوية حرمتها منذ قديم

وبينما أنا على هذا الحال ، إذ شعرت بالسيدة تلتفت خلفها مرتاعة . فالتفتُّ — وكانت غبشة الظلام قد أخذت تشيع فى الحجرة — فوقعت عينى على شبح بجوار الباب ، يتقدم نحونا . وتبادرت إلى ذهنى على الفور حكاية ذلك الزائر الممقوت الذى يلبس السواد ، ويقنع وجهه بنقاب حالك ، ذلك الذى اقتحم منزل السيدة فى إحدى الليالى وانتزع

الطفل الذي تحبه ويحبها من بين احضانها ، ثم اختفى فى الظلام ولم يعد ... فصرخت :

— كلا ! لا تأخذنى ... !

... وأنير المكان ورأيت عمى يسير نحونا بقامته المديدة ، وخطواته المتثاقلة ، عبوس الوجه ، يصوب إلينا نظراته الحادة ، وسمعته يقول :

— ما معنى هذا ... ؟

وانتزعنى من السيدة ، وأطبق يده على يدي بشدة وقال لها :

— كيف سوغت لك نفسك أن تستولى على أبناء الناس ... ؟ أنسيت من أنت ومن نحن ؟

ورأيت السيدة تقف بجوار الباب وتسند يدها عليه ، وكانت تبدو عليها سمات النبل والترفع ، وقد استطاعت فى لحظات قصيرة أن تضبط عواطفها ، وتعيد الهدوء إلى ملامحها ؛ ثم قالت له فى صوت شبه طبيعى :

— كلا يا سيدى ، لم أنس ولن أنسى من أنا ومن أنتم ... وإذا كانت الأخبار قد ترامت إليك بكل ماهو مخزٍ لى ومزرٍ بى فصدقها . ولكن هناك شيء واحد أريد أن أوضحه لك فى شأن هذا الغلام.

فرن صوت عمى قائلاً :

— عجيب أمرك مع هذا الغلام !

— خفف من حدتك يا سيدى ؛ فليس أمامنا الآن مايثير الغضب إلى هذا الحد . إن الغلام غلامكم وليس لى فيه أى حق

— حق ؟ هذا ما كان ينقصنا !

فابتسمت السيدة ابتسامة هادئة ، وقالت فى صوت خافض :

— ألا يمكننا أن نتفاهم ؟ تفضل بالجلوس بضع دقائق ، ولا أطالبك أن تطيل

فقال عمي :

— أفضل الوقوف . تكلمى من فضلك وأوجزى

فخلعت السيدة حلية مستديرة دقيقة الصنع تشبه الساعة الصغيرة ، وكانت مدلاة على صدرها ، تصلها برقبتها سلسلة ذهبية ، ثم فتحتها وقدمتها إليه وهى تقول :

— أنظر فى هذه الصورة !

فتناول عمى الحلية ، ونظر فيها ثم قال :

— واصف ! صورة واصف ؟

ورفع بصره إليها مستوضحاً . فقالت وهى ما تزال تبتسم ابتسامتها الساكنة :

— كلا يا سيدى ، ليس واصفاً . دقق النظر فى الصورة مرة أخرى ، هناك اختلاف صغير لا يصح أن يغيب عنك ...

— ... إذن ؟ !

— هذه الصورة لم تفارق صدرى منذ فقدته ! لن أنسى ما حييت ليلته الأخيرة معى ، تلك الليلة التى قضاها فى أحضانى ينظر إلىّ بعينين محمومتين ولا يملك أن يتكلم ؛ ورأيته يخبو أمامى، يخبو رويداً رويداً حتى انطفأ نوره كل انطفاء . لقد مد الموت إليه يده الظالمة فانتزعه من صدرى بلا رحمة

وشعرت بيد عمى تضطرب وهى ممسكة بيدى ، ورأيته يسمل سملته المقتملة ، ومضت السيدة فى قولها :

— لقد أصبح فقده جرحاً عميقاً فى فؤادى تثور علىّ ثائرته بين حين وحين ... كان يغمر قلبى

بهجة ويملأ عيني نوراً ، وكان صوته وهو يضج باللعب يبعث في البيت الحياة والإيناس ... آه ! كم كنت سعيدة به ... ! كم كنت فخورة به ... !

ورأيت عمي يتحرك ، ليعتدل في وقفته ، ولكنه ظل صامتاً يستمع بانتباه . وتابعت السيدة قولها :

— ... وعند ماحضرتُ إلى حلوان ، لقضاء فصل الشتاء ، ساقت المقادير إليَّ «واصف» فكأنما بُعث ابني من جديد . رأيته يعود إلى بعد طول اغتراب ، بشكله ودله ، فآخذه بين ذراعي ، وأضمه إلى صدري ، وأضع رأسه على موضع قلبي ؛ ليصغي إلى دقاته المتتابعة ، وألمس بفمي شعره الذهبي ، ثم أقبله وأشمه ...

وسكتت وقد أخفت وجهها في المنديل . وبعد حين تمتمت قائلة :

— والآن يا سيدي ، ليس عندي ما أقوله بعد هذا

ووقف عمي يدور بعينيه أمامه في حيرة واضطراب ، ولكنه لم يرفع بصره إليها . ظل كذلك وقتاً وهو يحاول الكلام فلا يستطيع ، ثم تقدم نحو السيدة وحنى هامته أمامها في خشوع وخرج وحده في خطوات سريعة *محمود تيمور*

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهي : الحاج شلبي . الاطلال أبو علي عامل أرتست . الشيخ عفاالله الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب « فرعون الصغير وقصص أخرى »

يظهر في نهاية العام

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والايطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

قصة أم

للقصصي الدانمركي اندرسن
بقلم الأديب صلاح الدين المنجد

جلست الأم بقرب وليدها واجفة القلب ، واكفة الدمع ؛ يذهلها الخوف عليه من شر الموت وقد استعصى داؤه ، وغمض دواؤه . تنظر إليه وقد غشيت محياه الوديع صفرة كئيبة ، واكتحلت عيناه بزرقة قاتمة . وترى إلى صدره يهبط ببطء ، ويعلو بصعوبة ، وهو مستلق على ظهره ، ما يتحرك إلا ليرسل زفرة موجعة ، أو آهة محرقة ، من حين إلى حين

وطُرق الباب ، فإذا شيخ قد تسمسع (١) وهرم ؛ هو شبح أو يشبه الشبح ، ما عليه إلا جلد فوق عظم ، وما فيه إلا روح تتردد بينهما ، ملتفعاً برداء يتقى به رعشة البرد ، فرحبت الأم به ، وقادته إلى الموقد ليطرد عنه العناء ، ويتلهى بجرعات من الجعة يُشيع فى جسمه الدفء بهما . ثم تركته يرسل فى الأرض نظرات ساهمة ، من

تعريف بالقصة

أندرسن قصصي وشاعر دانمركي كبير . اشتهر بأقاصيصه التى تنفجر منها الحياة ، وتتراءى لك منها صور الألم والشقاء ... بأسلوب حلو منسجم ، يمشى كما تمشى العروس ليلة الزفاف

وهو فى أكثر قصصه يحلل لك العواطف البشرية تحليلا دقيقاً يبهرك ويعجبك . وما يزال يفيض عليها من خياله الخصب ، ومعانيه الشعرية ، سحراً وجمالا ، حتى لتحسب أنك بين يدى شاعر جبار ، وأنك تقرأ شعراً لا نثراً . وقد تفنن فى هذا النوع من القصص الذي تمازج فيه الأسطورة الواقع والحقيقة الخيال

ومن روائع قصصه : عذراء الجبال — ورقة من السماء — ابنة الملك . وغيرها ...

(المنجد)

عينين مظلمتين عميقتين ، كأنهما تخرق حجب الغيب ، وتنفذ إلى سرائر الحنايا . وعادت إلى ابنها تنهنه دمعه ، وتهدهد آلامه ، وترسل له الأناشيد ...

وسكتت الأم فجأة . وقالت :
ترى يا شيخ هل يُشفى ولدى ويبقى لدىّ ؟ ... فغمغم الشيخ فى سرّه وحدّق فى الطفل وقال : كلا . فاكمدّ وجه الأم ، وطأطأت رأسها تذرف الدمع وترسل زفرات تفيض حسرة وأسى . ومرّ بخاطرها ما تلاقيه من همّ ملح وضنى لا يشفق . فها هى ذى منذ ثلاث لا تعرف عيناها سَجْو المنام ولا طعم الهناء ... ثم التفتت إلى وليدها ، فإذا بالوليد قد اختفى ، وإذا بالشيخ قد غاب ... وإذا بساعة الردهة تنقلب إلى الأرض متحطمة متكسرة ، فيسمع لها أنين محزن كأن معناه أن النجم قد خفق (١) وأن البلبل قد مات !

ونظرت الأم فى الغرفة ، فماد بصرها مذعوراً شاكياً . فقفزت إلى الباب قلقة الجنان ، مستطيرة النُّهى ، صارخة ياويلتاه ! لقد اختفى الوليد ، وقلبى قد قضى ... ! وكان الشتاء قد كلِب (٢) ، فهبت

(١) تسمسع : بلغ من الكبر عتياً

(١) يقال خفق النجم : أى غاب
(٢) يقال كلب الزمان أو الشتاء إذا اشتد

فلوجه ، وامتد جليده ، والريح قد ثارت فهي ما تنفك ترسل الزئير وتردد الأنين ، وما تني تلطم الخدود وتصفع الوجوه ... واندفعت الأم فى طريقها لاتأبه لريح ولا تخشى شتاء . فلقيت امرأة قد ارتدت سلاباً [1] فضفاضاً ، فسألتها عن شيخ يحمل طفلاً صغيراً . فقالت المرأة : نعم إنى رأيت الشيخ ... ذلك هو الموت ... رأيته يخرج من تلك الدار ومعه طفل صغير ... إنه يجرى كالهواء ... إننى أنا ...

— الموت ... ؟ لكن ... أين ذهب ؟ . تكلمى بربك ... عجلى ... تكلمى ...

— إنى أنا الليل ... أعرف الطريق التى تؤدى إلى مأوى الموت ... ولكن تعالى قبل أن أدلك عليها ، وأسمعيني أغانى الأمومة العذاب ، وأناشيدها السواحر ... إنها صدى لوجيب قلبك ، وثورة عواطفك ... لشد ما كان قلبي ينتشى لدى سماعها ويطرب .. ! لقد أصغيت إليك وأنت تناغين وليدك ، ونظرت إليك ترسلين مدامعك ، وقد نشرت على الكون السلاب هذا ... تعالى إلى وغنى لى ... يا حبيبة ... !

— أواه ! أوّاه ! سأغنيهن لك كلهن ... نعم كلهن ... ولكن بعد حين ... بعد أن ألقى طفلى الصغير ...

وصمت الليل ... وبكت الأم ... وراحت تغنى من قلب مفجوع . لقد غنّت كثيراً حتى مل الليل الغناء ، ولكنها بكت أيضاً وما ملت البكاء ، تحت الثلج المتناثر كأزاهير من ياسمين مبعثر جميل ..

قال الليل : اذهبى ... واتخذى هذه الطريق ، حتى تصلى إلى غابة الصنوبر فلعلك تجدين الموت ...

وانطلقت الأم مسرعة تنهب الأرض ، تلفحها ريح صرصر عاتية ، حتى إذا كانت فى غابة الصنوبر وجدت طريقين لم تدر أيتهما سلك الموت . فلكتها الحيرة ، وجاءت إلى شجيرة وردعارية ، مافيها سوى أشواك غليظة ، وعيدان نحيفة ، وقالت لها :

« أيتها الوردة ! ... هل تعرفين السبيل إلى مقر الموت ... ؟ »

قالت الوردة : نعم ! إنى لأعرف السبيل إلى مقره . ولكن ... لن أدلك عليه حتى تضمينى قليلاً إلى صدرك ... وتضمينى هناك بين نهديك ، فأدفأ قليلاً ، وتدب فىّ الحياة . لقد صوّح الصقيع نضرتى ، وجردتنى الريح من أوراقي ، فهل تقبلين؟

وفى صمت عميق تقدمت الأم من الشجرة ، وأدنت الأغصان من صدرها . هذا فوق النهد ، وذاك فوق الحلمة ، وثالث بينهما ... وراحت تضغط برفق وعلى مهل ... فينفذ الشوك فى الثدى ويتدفق الدم غزيراً وينهمر الدمع صبيباً ... وتحس الأغصان حرارة قلب ملتاع ... فيجرى الدم فى العروق ، وتتفتح البراعم عن أوراق خضراء وورود حمراء ، بين الثلج المتناثر والهواء النوّاح

قالت الوردة آنئذ : هاهى ذى طريقك ياحسناء ، اسلكيها فلعلك تجدين الموت ! ...

ومضت الأم تتمثل فى خاطرها صورة ابنها ، فترتعد من فراقه ، وتهذى لبعده ثم توفض فى مشيها وتسرع كمن أصابه مس ... حتى وقفت أمام بحيرة كبيرة ، ما ترى على صفحتها المضطربة قارباً وما تجد زورقاً . فقالت فى نجواها : لِمَ لا أشرب هذا الماء وأشتفيه ، فإذا نضب هبطت إلى قعرها ، ومشينا حتى أصل إلى الضفة الأخرى .

وانحنت للشرب ، فقهقهت البحيرة ، وراحت تقول :

رويداً ... رويداً ياحسناء ... إنك لن تستطيعى شرب مائى ... كونى صديقة لى ... وهبى لى هاتين

(١) السلاب : ثياب الحزن أو السواد

العينين الجميلتين ... إنني أشتهي لؤلؤتين ثمينتين أحلي بهما صدري . إن عينيك لساحرتان ... وإن لها وميضاً مغرياً جذاباً . اذرفي الدمع سخيناً أمامي حتى تسقط عيونك في قاعي ... فأحملك آنئذ إلى حيث يكون الموت

— آه ! كلا لن أعطيك ماتطلبين ... أيتهـا البحيرة ... بل سأبقيهما لأرى ولدي ...

— إذن هذا فراق ما بيني وبينك ... اشربي مائي ، وافعلي ما تشائين

— كلا ... كلا ... تعالي أيتها البحيرة ، تعالي فسأعطيك ما تودين ... !

وراحت الأم تبكي ... حتى سقطت عيناها وتدحرجتا إلى قاع البحيرة العميق ... وانقلبتا لؤلؤتين مارأت الملكات مثلهما أبداً ...

وفي طرفة عين حملتها البحيرة على ظهر موجة واحدة ... إلى الشاطئ البعيد

***

— لقد قالت لي البحيرة : إن مقر الموت هنا ، ولكن كيف لي برؤية الموت وقد أصبحت عمياء ؟

قالت عجوز شمطاء سمعت ما تقوله الأم :

— مالك والموت؟ ... ومن دلك على الطريق ؟ ثم ماذا تريدين ؟ ...

— إنه ربي ... قادني وأعانني ... إنه رؤوف رحيم ... أشفقي على أنت أيضاً يا أماه ... وقوديني إلى حيث يكون الموت لأرى طفلي الصغير ... !

— أنا ماعرفتُ طفلك أبداً ... وكيف تريدين رؤيته وأنت عمياء ... هنا حديقة الآجال ، لقد ذهب الموت ؟ اليوم ، ليقبض من جاء أجله . فإذا عاد قطف زهراتهم ...

— زهراتهم ؟

— نعم يابنتي ، إن لكل مخلوق زهرة هاهنا ، هي رمز لحياته وأعماله ، وهي تموت إذ يموت ... إذا رأيتهـا حسبتها زهرة كالأزهار ، وإذا لمستها شعرت بوجيب قلب ... تعـالي ، ثم المسي هذه الأزهار ، علك تعرفين وجيب قلب طفلك ... ولكن ما الذي تعطينه يا حسناء ؟ ...

— ليس لدي شيء .. ولكن سأحضر لك كل شيء ..

— مالي حاجة لكثير سوى شعرك الأسود الجميل ... أتبادليني بشعري الأبيض شعرك الأسود الأثيث ؟ ...

— نعم .. خذي .. خذي ماتشائين .. ولكن عجلي بربك !

وأخذت العجوز تلك الشعور ، وأعطتها شعرها الأبيض ، نذير الشؤم والفناء .. ثم قادتها إلى الحديقة الكبرى وراحت تقول :

— هنا ينبت الورد إلى جانب الشوك .. وهناك النسرين إلى جانب الموسج .. وتلك أزهار كلها نضرة وحياة ... وهذه أزهار أصابهـا الهزال وألوى عنقها الذبول ، وأحاطت بها أعشاب وحشية سوداء .. وهناك .. قامت أشجار من نخيل وأعناب ، إلى جانب الصعتر والزعرور والأقاح .. إنها تمثل حياة الخلائق من الصين إلى غرولاند .. وهذه الـ..

وبينما كانت الشيخة تقص على الأم نبأ هذه الأزاهير ، وتلك الأشجار ، كانت الأم غارقة في عالم بعيد .. بعيد جداً .. لقد كانت تصغي إلى خفق القلوب ! .. وفجأة .. ارتجفت يداها .. وخفق فؤادها وقالت بحسرة ولهفة :

— إنه قلبه .. بالله! لماذا أنت ذابلة أيتها الزهرة؟ حدثيني بالله ..

— لاتلمسيها الآن .. ولكن تضرعي للموت عندما يأتي ، وأذرفي الدمع أمامه . هدديه بقطف

الأزاهر إن اقتطف زهرة وليدك ، وادعى ربك يا صبية ، فشيئته فوق كل شيء ..

وهبت عاصفة هوجاء ، أوصلت الموت إلى حديقته؛ فعجب إذ رأى الأم وقال :

— كيف أتيت إليّ ؟ .. أوصلت قبل أن أصل؟ ما الذى فعلتيه ! ..

— أريد ولدى يا موت .. أضرع إليك .. إعطف عليّ .. رحمة بى !

— هيهات ! هيهات ! .. أنا لا أملك من دون الله ضراً ولا نفعاً .. أنا أتعهد حدائقه بالمناية .. فاذا جاء أجل أولئك الناس مضيت لأنقلهم من عالمهم هذا .. إلى عالم آخر .. مجهول ..

— ناشدتك الله يا موت إلا رحمت . ياللحزن الدائم والشقاء المقيم ! . . .

وراحت الأم ترسل الصرخات شاكية ضارعة ، والتوسلات الحزينة المبكية ، والموت صامت لا يجيب .

— مهلا يا موت لا تقطف زهرته . . . وإلا قطفت هذه الزهرات . . .

— ويحك إنها زهرات لأطفال !

— أطفال ؟ كلا .. كلا .. أنا لا أريد أن افجع أحداً ! . . .

— ما الحياة . . إنها صور حلوة فيها السعادة والهناء . . تعقبها أخرى كلها تعاسة وشقاء . دعيه دعيه . . .

— لكن أتعلم يا موت ما قدر على ابنى ؟ هل يعانى كثيراً من الآلام . . إنك لا تجيب . . آه ! هل يعيش مطمئناً فى السموات .؟ هه .؟ ألا تجيب يا موت ؟. كلا .. لن أدعك تأخذه . أيها الجبار ! لكن .. حنانيك .. ارحم هذه الأم ..

— . . . !

— خذه .. خذه .. أليس ذاهباً إلى الجنان .. !

غفرانك اللهم ! تلك مشيئتك !

وانحنى الموت وقطف تلك الزهرة وانطلق بها إلى العالم المجهول (١) . . .

أما الأم . . فلها الله ! لقد سقطت على الأرض لا ترمز ولا تنى ، وقد علق بصرها بتلك الزهرة الذاهبة إلى السماء . . . !

دمشق « صبوح الدبه المنجم »

(١) تنتهى هذه الأقصوصة فى بعض النسخ بنتيجة أخرى سارة : تلك ان الموت عند ما يرى ما لاقته الأم من عذاب وآلام ، يدعو ربه ، فيشفق الله على تلك الأم ويهب لطفلها عمراً جديداً ، فترجع الأم مع طفلها إلى الدار ويعيشان عيشة كلها سعادة وهناء . . .

رحلة المحيط الهندى

فى سفينة مصرية

رددت أخبارها صحف العالمين

الإنسانية فى شتى مظاهرها تطالعك من صفحات

سندباد عصرى

بقلم

حسين فوزى

١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً

لقد أحضرت المركبة !

للكاتب الفرنسي تيودور دي بانفيل

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

كان « جانوتى » موسيقياً فقيراً مغموراً . وكانت مؤلفاته وألحانه لا تجد سوقها الرائجة إلا فى الملاعب الشعبية والمسارح الوضيعة ، ولكنه كان مع ذلك ينعم بعيشة راضية وحياة هانئة مع زوج محبة مخلصة تبث فيه الأمل وتبعث فيه الطموح وتصور له المستقبل نيّراً خلاباً ، فضلا عن تدبيرها للبيت وحسن قيامها على شؤونه حتى جعلته على فقره غنياً من الموسرين ، وعلى خموله وثاباً من الطامحين . . وكان ينظر إلى زوجه نظره إلى النعمة الواحدة التى وهبتها له الأقضية ، وأتاحتها له الأقدار

وكانت « كوليت » — وهذا اسمها — شابة جميلة ريانة فتانة تحب زوجها وتثق به وتعتقد فى نبوغه وعبقريته ، لذلك وهبته قلبها وروحها . والمرأة إذا منحت قلبها رجلا أنزلته من نفسها منزلة الروح ، وأحلته من روحها محل النفس فأخذت تهيئ له أسباب الراحة والرفاهية فتجهز له من الطعام أحب الألوان إليه ، وتتوفر على ترتيب الأثاث وتنسيقه فى محال وأوضاع تدل على حسن الذوق وسلامته ، حتى إذا ما انتهت من شؤون البيت جلست إلى « البيانو » وأمرّت أناملها البضة الناعمة على أسنانه العاجية عازفة ألحانه مردّدة أناشيده ، وتبدئ فيها وتعيد وهى بغنه ونبوغه جد سعيدة معجبة ، وكانت تمضى إلى السوق كل صباح لتبتاع ضروريات البيت ولوازم الطعام وتساوم الباعة وتماكس التجار حتى تنزل بهم إلى أبخس الأثمان

ثم حدث فجأة ما غير هذه الحياة السعيدة الهانئة وقلبها جحيما لا يطاق وإليك كيف كان ذلك :

نجحت « تاتا » نجاحاً كبيراً فى إلقاء مقطوعة جانوتى الأخيرة . وذهبت يوماً إلى منزله لتبدى بعض ملاحظات فنية على الأنشودة الجديدة قبل أن تغنيها ، وجانوتى موسيقى بارع له دراية تامة وإلمام واسع بما تقتضيه هذه الأغانى من فن فى التلحين والنغم . . وفتحت لها كوليت الباب وقد انفلتت لتوّها من غسل الآنية وتنظيف الصحون ولما تزل المنشفة فى يدها فقالت « تاتا » عند رؤيتها

— أعلنى للسيد قدومي

ثم تركت من يدها ذيل فستانها المهفهاف الطويل فأعلنت كوليت مقدمها « للسيد » ثم عادت أدراجها إلى المطبخ

وبينما كانت « تاتا » تعرض على جانوتي جملها وتنفث فيه سحرها وتسدد إلى قلبه سهام لحظها المتكسر الفاتر إذ تفتحت مسارب عيون السماء عن مطر كالسيل الجارف أعاد إلى الأذهان مطر الشهر الماضى الذى كان له أكبر الأثر فى إتلاف القبعات وتفتيح الورود والأزهار . فقالت « تاتا » وقد رأت المطر الهتون والسحاب الثقال :

— يا لسوء الحظ ! لقد اكفهر الجو بغتة ، أرجو — إذا سمحت — أن تأمر خادمك فتبحث لى عن مركبة .

الآن كان يجب على جانوتى أن يبدو شجاعاً فيقول مثلا « أوه ! أرجو المعذرة ! ليس عندى خدم . إنها زوجى » ولكنه كان جباناً إذ أجاب :

— أجل ... أجل بكل سرور

ثم ذهب وهو يعبث بإبهاميه إلى غرفة المائدة – التى جعل منهـا أيضاً صالة لموسيقاه – حيث كانت كوليت منهمكة فى غسل الخضر وتجهيز الطعام كأحسن ما تكون زوجـة وأروع ما تكون ربة بيت . قال الرجل

— إن الآنسة « تاتا » تخشى على فستانها وحذائها الساتانيين[1] من التلف فى هذا المطر الغزير ولذا أرجوأن تذهبى ...

فأتمت كوليت عبارته وهى تسدد اليه نظرة هائلة ود على أثرها لو تنشق الأرض وتبتلعه

— فأحضر لها مركبة ... حسن ! طب نفساً فسأبحث لها عما تريد

وخلعت كوليت بعد لحظات حذاءها المبلل وأخذت تنظر إلى النقد النحاسي الذى نفحتها به « تاتا » نظير البحث عن مركبة

ومنذ تلك اللحظة تبدل الحال غير الحال ، إذ أن كوليت التى كانت تقوم بكل أعباء البيت وخدمته قانعة راضية ، مخلصة وفية ، أضحت لا تغادر فراشها قبل الحادية عشرة كل صباح إذ تقول وهي تتمطى وتتثاءب « أوه ! ألم يطلع الصبح بعد ؟ ! » وأصبح البيت المنظم المنسق النظيف أشبه الأشياء بمدينة ايطالية وقعت غنيمة باردة فى أيدى القوط . فنسجت العناكب خيوطها القـذرة على الحوائط والصحون ، وعششت الحشرات الطفيلية فى الساعة الكبيرة . وأهملت الملابس والجوارب . فاذا انقطع زر فلا يعاد إلى مكانه ، وإذا تمزق جورب فلا يرتق بل يترك وشأنه

وتبدلت مقطوعات « واجنر » بمؤلفات زوجها وأغانيه وراحت يداها المضطربتان تجريان على البيانو فتأتى بأنشز النغم ، وترفع عقيرتها بالغناء فتخرج أنكر الأصوات فلما فاض بجانوتى وعيل صبره صرخ فيها قائلا

— إن هذه الموسيقى تجلب الصداع ...

فأجابته كوليت فوراً :

لقد أحضرت المركبة ! . وكانت هذه العبارة هى الرد على كل ما يوجهه اليها من حديث

— كوليت ! إن الحساء بارد ! — لقد أحضرت المركبة — لقد تقطعت أزرار قميصى — لقـد أحضرت المركبة — أراك لا تقبليننى الآن . لقد انطوى حبك لى وزال

— كلا ياعزيزى ، ولكنى أحضرت المركبة

محمد عبد الفتاح محمد

(١) الساتانيان . نسبة إلى قماش « الساتان »

النموذج

تأليف محمد جلال

رئيس قلم الترجمة بوزارة الزراعة
خريج مدرسة المعلمين العليا ومدرسة المعلمين الملكية

يجد فيه الآباء والأمهات وسائل تكوين الأخلاق وتقويمها وطرق التربية الوطنية الاستقلالية والأخلاق والإرادة

ويجد فيه الأدباء الصراع بين القديم والحديث (مسرحية) وفلسفة الضحك ومثيرات الضحك والانفعالات النفسية ودراسات أدبية خاصة بالمتنبي وبرنارد شو

ويجد فيه الساسة فن الإمارة

يجب على كل من يريد تربية أولاده تربية صحيحة أن يقرأ هذا " النموذج "

ثمنه خمسة وعشرون قرشاً صاغاً على ورق أبيض
وأربعون قرشاً صاغاً على ورق كوشيه

يباع بمكتبة النهضة ومكتبة الانجلو المصرية ومكتبة زيدان ومكتبة مصر

الوالد

للقصصي الفرنسي موباسان

بقلم الأستاذ علي الطنطاوي

كان موظفاً في وزارة المعارف يذهب إليها كل صباح في عربة (الأومنيبوس) من داره في (الباتينيول) إلى مكتبه في قلب باريز، وكانت عاملة في مخزن تذهب إليه في تلك الساعة نفسها؛ وكانت سمراء حلوة السمرة، شابة غضة الشباب، ذات عينين سوداوين ساحرتين، وكانت تُرى كل صباح في زاوية من الشارع لا تحيد عنها، واقفة تنتظر العربة، فإذا رأتها عدت إليها بخفة ورشاقة، فأدركتها وقفزت إليها قبل أن يقف السائق خيولها البطيئة. ثم دخلت فأجالت عينيها فيما حولها، وجلست في مكانها الذي لا تغيّره قبالة صاحبنا (فرانسوا تاسّه) الذي أحس منذ المرة الأولى التي رآها فيها بإعجاب بها لا حدّ له؛ وود كما يود المرء أحياناً لو يطوقها بذراعيه، ويضمها إلى صدره وإن لم يكن له بها معرفة، بل لقد شعر أنها فتاة أحلامه التي أعدّ لها في قلبه أسمى عواطف الحب وأعمقها ولبث ينتظرها طويلا، وإن فيها المثل الأعلى للمرأة التي هام بها خياله الشاب، واستهوته فراح يتأملها على الرغم منه، فإذا تضايقت من نظراته واحمرّت خجلا، حاول أن يصرف بصره عنها، ولكنه لا يستطيع فيظل محدقاً فيها؛ ولم يكلمها قط، ولكن نفسيهما قد أطلتا من أعينهما، فالتقتا وتفارقتا منذ التقت نظراتهما

وازدحمت العربة يوماً بالركاب ولم تجد الفتاة مكاناً خالياً، فنزل لها عن مكانه وظل واقفاً، فجزته على معروفه بابتسامة قصيرة ملأ وميضها نفسه نورا، ولم يعد يظهر عليها الضيق من تأمله فيها، وإن كانت لا تزال تغض بصرها حياء، وانتهى الأمر بهما إلى الحديث، وكان حديثاً لذّاً كأنه قطع الروض يستمر نصف ساعة كل يوم، كانت أشهى إليه من أيام العمر كلها وما فيها من لذائذ ومتع. وكان يفكر فيها أبداً وهو جالس إلى مكتبه في ساعات العمل الطويلة المملّة، ويستعيد ذكراها في نفسه، ويرى طيفها ماثلا أمامه يؤنسه في وحدته

لقد كانت سعادته وأمله ومثله الأعلى الذي يسمو عن حقائق الحياة وعن ترّهاتها!

* * *

وتأكدت بينهما المعرفة فأصبحا يجتمعان ويفترقان على مصافحة باليد لا يفتأ يحسّ إلى المساء بأثرها في يده، كأنما لمستها الكهرباء لولا أن أصابعها الغضة اللينة تحمل إلى جسده هزة أقوى من هزة الكهرباء، يميد لها جسمه كله، ويشعر أنها تركت على كفه أثراً يتحسسه النهار كله، وينتظر بصبر فارغ صبيحة الغد ليلقاها في العربة (السعيدة) ويرى أيام الآحاد — على رغم أنها أيام راحة ودعة — مضجرة محزنة لأنه لا يبصرها فيها

ولقد كانت تحبه هي، ولم يعد يشك في ذلك بعد أن قبلت دعوته إياها للغداء في (لافيت) يوم أحد جميل من أيام الربيع

وكان ذلك الأحد، وجاء إلى محطة (الأومنيبوس)

بكرة لينتظرها فإذا هي فيها تنتظره ... فدهش من بكورها ، وهم بالتحدث إليها ، ولكنها قالت له :

— قبل أن نخطو خطوة واحدة ... أريد أن أقول لك شيئاً ، فهل تسمعه ؟

واهتز جسمها وهي مستندة إلى ذراعه وشحب وجهها فأطرقت بنظرها إلى الأرض وقالت :

— لا أريد أن أخدعك عن نفسي — إني فتاة شريفة — ولن أصحبك حتى تقسم لي أنك لن ... أنك لا تفعل ... إلا ماهو .. أعني ما ليس ... لائقاً

وأكملت كلماتها بجهد ظاهر . وعاد وجهها كالوردة الحمراء ... وسكتت ولم يدر هو بماذا يجيب ، وشعر بالخيبة والسرور يلتقيان في نفسه ، وتراءت له أحلامه في الليلة المنصرمة — احلامه التي ألهبت النار في عروقه وملأت رأسه بالخواطر الجنسية التي تفيض بها رؤوس الرجال ... فلم يقل شيئاً

فعادت تقول بصوت مضطرب وفي عينيها دمعة تترقرق !

— إذا كنت لاتمدني باحترام...عفافي ، فاني عائدة إلى البيت لا محالة !

فطوقها بذراعه في رفق وحنان ، وقال لها :

— أعدك ألاّ أفعل إلا ما تريدين

فأشرق وجهها سروراً وقالت :

— أحق ما تقول ؟

— نعم . وإني أقسم عليه

— إذن فلنركب !

ولم يتكلما في الطريق أبداً . لأن العربة كانت مزدحمة . فلما بلغا (لافيت) توجها نحو (السين) وكان النسيم يهب عليلا يبعث الارتخاء في الجسم وفي الروح ، وكانت الشمس ساطعة ترسل أشعتها إلى النهر الفياض والخمائل الفاتنة ، فتغمر النفس نشوة وسكراً فشمرا كأن نفسيهما قد سبحتا في بحر السعادة الذي يزخر في سماء الأحلام بعيداً عن الدنيا وشرورها كما تسبح أسراب السمك التي وقفا ينظران إليها حالمين مأخوذين

وانتبهت أخيراً ، وانتبه على صوتها وهي تقول له :

— لقد كنت حمقاء !

— ولم بالله ؟

— لأني صحبتك .. أما تراها حماقة أن تصحب فتاة رجلا لا تعرفه في نزهة خلوية

— أبداً بالعكس . هذا أمر عادي (١)

— كلا كلا . ليس هذا بالعادي ، بالنسبة لي أنا على الأقل ، أنا التي لا تريد أن تزل بها القدم ، بمثل هذا تزل الأقدام ، ويسقط الناس في هوة الرذيلة ... ولكنها حياة جافة تلك التي أحياها حياة متشابهة لا أثر فيها للجدة . تمر الأيام ، وتمضي الشهور وهي هي : غدوٌ إلى العمل ورواح منه. وليس لديّ إلا أمي الكئيبة الحزينة التي أعمل لأدخل على قلبها المظلم خيطاً من ضوء السرور ، ولكن على كل حال ... لقد أخطأت بالمجيء معك

وكان جوابه على كلامها أن عانقها بشوق فأفلتت منه كالظبي النافر ، وصاحت به مغيظة :

— أوه مسيو فرانسوا . ابعد ما أقسمت لي ؟

وتقلت راجعة نحو (لافيت)

وتغديا هناك في مطعم جميل متربع في حضن النهر وقد جعلهما الهواء الطلق والدفء والخمر التي تعاطياها فتوردت منها وجنتاها ، جعلهما صامتين فياضة صدورهما بشتى العواطف المحبوسة ... التي

(١) أمر عادي !

انفجرت بعد تناول القهوة فاستحالت قوة وفرحاً واندفاعاً هائماً يجتازان (السين) ويسيران بازاء الشاطئ إلى قرية (لا فريت)

وسألها فجأة :

— ما اسمك ؟

فأجابت :

— لوزيتا

فردد اسمها بصوت خافت ولم يقل شيئاً

كان ذلك الصف الطويل من الدور البيض القائمة على الشاطئ يبدو كأنه غارق فى النهر . عاليه سافله ، وكان على الشاطئ كثير من زهر الأقاحى فراحت تقطفه وتصنع منه باقة ، أما هو فراح يغني بملء صوته نشوان من الطرب كظمآن وقع على الماء العذب ، وظهر إلى يسارها كرم جميل على أكمة صغيرة تنحدر إلى الشاطئ ، فتأملته مشدوهاً وصاح بها :

— انظرى

ثم بدت لهما أرض واسعة تحف بالنهر من جانبيه مكسوة بزهر (الليلك) الجميل كأنما هى طنفسة ثمينة صنعتها يد الله تمتد إلى حدود القرية الجاثمة هناك على ميلين منهما أو ثلاثة — فلبثت شاخصة ذاهلة وهمست :

— ياله من منظر فاتن !

وسعيا إلى هذه الأرض التى تفيض على بارز من هذه الأزهار الجميلة فيتسابق الناس إلى اقتنائها ، ويسرع البائعون من أصحاب العربات إلى عرضها ، واجتازا محجة ضيقة إلى بقعة صغيرة خالية فجلسا فيها ، وكانت قبائل من الفراش والذباب تطن فوقهما طنيناً مستحباً ، والشمس مشرقة تملأ المكان بأشعتها الناعشة كما تملؤه الأزاهير بأريجها المعطر

ورن من بعيد ناقوس كنيسة

فأصابهما ذهول فاتن وتعانقا وطوقها بذراعه بقوة وارتميا على الأرض غارقين فى قبلة طويلة على غير شعور منهما — وكانت عيناها منمضتين وذراعاها ملفوفتين حوله ، وقد تحدر جسمها كله وارتخى ، وعيل صبرها فأسلمته نفسها ... وهى لا تدري ماذا تصنع !

أفاقت الفتاة أخيراً ، فهالها ما صنعت ، فغطت وجهها بكفيها وشرعت تبكى وتئن أنيناً مؤلماً ، فحاول أن يغريها ويهون الأمر عليها فلم تستمع إليه ونهضت ولسانها يدور فى فمها لا يهدأ ، تهمس همساً متواصلا :

— يا إلهى ! يا إلهى !

فعاد يقول لها :

— لوزا ، تريثي قليلا ، أرجوك يا لوزا

ولكنها أبت عليه ، وانصرفت عنه دون أن تلقى عليه تحية الوداع — وكانت عيناها شاخصتين ووجنتاها حمراوين كالجمرة المتوقدة

* * *

ولقيها فى العربة غداة الغد ، وكانت شاحبة اللون ، غائرة العينين ، فهمست فى أذنه :

— انزل ، إن لدى ما أقوله لك

فنزل وسارا على رصيف الشارع حتى إذا انفردا بنفسيهما قالت له فجأة :

— اسمع ! يجب أن نفترق ، لم أعد أريد أن أراك

فسألها بصوت خافت :

— ولكن ... لماذا ؟

— لأنى لا أريد ... لا أقدر ... لقد كنت مجرمة

فآله جوابها ، وتنبهت فى نفسه خواطر الأثرة

الجنسية فتصور هذه الفتاة الجميلة بين يديه يستمتع بها فى ليالى الحب الوادعة الهنيئة ، وأحس بالرغبة الملحة فى الاستحواذ عليها ، فأنبعته هذه الأفكار وكاد رأسه ينفجر من ضغطها — وعلم أنه لايستطيع البقاء خلواً من (لويزا) فعمد إلى استعطافها والتضرع إليها :

— ... ... أرجوك يا لويزا

— كلا . لا أقدر ، دعني

— إننا سنتزوج ، هل تقبلين بى زوجاً

— كلا

وذهبت مسرعة

* * *

ومرت ثمانية أيام لم يرها فيها ، ولم يكن يعرف لها مستقراً ، فحسب أن لا مطمع له فى رؤيتها مرة ثانية ، وتناساها ... فلما كان اليوم التاسع سمع قرعاً على بابه فذهب ينظر ، فاذا هى ترتمي بين ذراعيه وتبيحه نفسها وتصبح خليلته !

واستمر ذلك ثلاثة أشهر ، ثم أحس بالجنين الذى تحمله فى أحشائها فتبرم بها واجتواها ، وحاول أن يجد إلى الخلاص منها وسيلة — ولكن الوسائل أعجزته ، فاختفى

وكانت الضربة على الفتاة قاسية فلم تفتش عن هذا الذى أغواها ثم تخلى عنها ، بل عادت إلى أمها فوقعت على قدميها ، تشرح لها حالها ، وتسألها رحمتها وحنانها

وبعد شهور أخرى ... وضعت غلاماً

* * *

كرت الأعوام وحياة (فرانسوا تاسه) تكر معها على نمط واحد ، ليس فيها لذة الأمل ، ولا روعة الانتظار . حياة موظف يفيق كل صباح فى الساعة التى اعتاد أن يفيق فيها ؛ ويسلك كل يوم الطرق التى سلكها بالأمس ويسلكها فى الغد ويدخل المكتب ذاته ، ويعمل الأعمال نفسها ... حياة حالكة جافة ، وعزلة كاملة . يكون فى مكتبه بين أقرانه نهاراً ولكنه منفرد بنفسه عنهم ويأوى فى الليل إلى داره وليس له فيها قرين ... وقد أعانته عزلته على توفير المال فكان يدخر من كل مرتب مائة فرنك لهرمه

وكانت مسلاته الوحيدة أن يخرج فى الآحاد فيجول فى (الشانزليزيه) يشاهد مباهج الدنيا ، ويرى الفتيات الجميلات وهن يجزن به أسرابا ، ويعود فى الغد إلى عمله فلا يذكر من أمسه شيئاً أو يذكره بكلمة يهمسها فى أذن جاره :

— لقد كانت أمسيتنا أمس بهية

وكان مرة يجول على عادته فى صباح أحد صائف فقادته رجلاه إلى حديقة (مونسو) حيث يجلس الأمهات والمرضعات ويدعن أولادهن يسرحون ويمرحون على الخمائل ، ولكنه لم يكد يخطو إلا خطوات حتى اعترته رعدة . لقد لمح امرأة تجر بيد صبياً فى العاشرة من سنيه وباليد الأخرى بنتاً فى الرابعة

وكانت هى بعينها

وازداد اضطرابه فارتمى على كرسى قريب منه وانتبهت فى نفسه — فجأة — ذكرياته الماضية وهاجت فى صدره عواطفه الحبيسة فجعل يرقب هذه المرأة وهى جالسة وإلى جانبها الصبي هادئاً ساكناً فى حين أن البنت لا تفتأ تلعب وتلهو

ورفع الصبى رأسه فخفق قلب (ماسه) خفقاناً

شديداً ، وأيقن أنه ابنه ، ولكن ماذا يصنع ؟ هل يتعرف إليها ويذكرها بنفسه ، إنها ستعرفه لأنه لم يتغير إلا قليلا عما كان عليه منذ عشر سنوات . غير أنه لبث جاثماً فى مكانه وراء الشجرة ينتظرها حتى تذهب ، ليتبعها

***

مرت على (فرانسوا) ليلة لم يغمض له فيها جفن ولم يكف لحظة عن التفكير فى هذا الغلام الجميل ... كان يعلم أنه ولده ويود أن يصل إليه ولكنه لا يدرى من أين السبيل ، وإن كان قد عرف دارها وعرف أنها اقترنت برجل مستقيم شريف ، رثى لحالها وغفر لها زلتها بعد أن اعترفت له بكل شىء

ولبث يتردد على حديقة (مونسو) فى كل أحد ، وكلما رأى ولده تثور فى نفسه رغبة جامحة فى أن يأخذه بين ذراعيه ، ويقطع خديه لثما وتقبيلا ، ثم يحمله ويفرّ به ، ولكنه لا يفعل شيئاً ، ويبقى واقفاً ينظر إليه حتى يذهب ، فيعود إلى عزلته محطماً حزيناً ، تحز فى نفسه الآلام وتحرقها شتى العواطف

***

وعزم أخيراً على اقتحام المصاعب التى تعترضه وعلى أن يصل إليها مهما كلف الأمر ، فاقترب منها يوماً فى الحديقة ، وقال لها وشفتاه ترتجفان :

— ألم تعرفينى بعد ؟

فرفعت إليه عينيها ، فلما تثبتته ندّت عنها صرخة رعب وفزع ، وأخذت بيدى ولديها وولت مسرعة تجرهما وراءها جراً

أما هو فقد رجع إلى منزله يبكى ، وافتقدها منذ ذلك اليوم فلم يعد يراها لا فى الحديقة ولا فى غيرها ، ولكنه لم ينسها أبداً ، ولبث يفكر فيها دائماً ويكتب إليها حتى بلغ ما بعث به إليها عشرين رسالة ولم تجب ، فعزم على أن يخطو الخطوة الأخيرة ، فأخذ ورقة وكتب إلى زوجها :

سيدى

قد يكون اسمى مبعث إزعاج لكم ، ولكنى بائس حطمته الآلام ، وليس لى فى غيركم مأمل . فأرجو أن تسمحوا لى بمقابلتكم عشر دقائق وتفضلوا بقبول . . .

فجاءه الرد صبيحة الغد :

سيدى :

أنتظرك يوم الثلاثاء الساعة الخامسة

***

وكان ذلك اليوم فارتقى الدرج إلى منزلها وقلبه يخفق فى صدره خفقاناً شديداً ، وقد ضاقت أنفاسه وأحسّ من نفسه بالاعياء فأمسك بالجدار كيلا يسقط ، ومشى ببطء ومشقة حتى بلغ الطابق الثالث فخفق الباب ولبث ينظر

— هل السيد (فلامل) هنا ؟

— نعم . تفضل يا سيدى

وأدخلته الخادم إلى بهو كبير فوقف فى وسطه مأخوذاً كالذى ينتظر أن تحل به مصيبة

وفتح الباب ودخل منه رجل وقور مهيب بمعطف أسود فأشار (لتاسّه) أن يجلس وارتقب ما يأتى به

فاعتدل (فرانسوا) فى جلسته وقال بصوت مرتجف :

— سيدى . . . سيدى . . . أنا لا أدرى إذا كنتم تعرفون اسمى أو . . .

فقاطعه الرجل قائلاً :

— لا فائدة من هذا الكلام ... لقد أخبرتنى امرأتى بكل شىء

وكانت لهجته جافة استشعر منها (فرنسوا) غضبه المكتوم ، فعاد يقول :

— عفواً يا سيدى ... أكاد أموت من الألم ومن تعذيب الوجدان ومن الخجل ولا أريد إلا معانقة ابنى مرة واحدة . . . مرة واحدة فقط

فنهض الرجل واقترب من الموقد فقرع الجرس يدعو الخادم ، وأمرها أن تأتيه بلويس

وبقيا صامتين لا يجدان ما يقولانه حتى دخل الصبى يسعى إلى هـذا الذى يحسبه أباه فلما لحظ الغريب وقف ، فقبّله السيد (فلامل) فى جبينه وقال لفرنسوا :

— لك أن تعانقه إذا شئت

فنهض فرنسوا وألقى بقبعته على الأرض ، وحمل ولده الدهوش يقبله في جبينه وعينيه وفمه ، والغلام يتلوى ويدير وجهه ليدفع عنه شفتى هذا الرجـل الغريب . أما السيد (فلامل) فقد ولاهما ظهره ، ووقف ينظر من النافذة

حتى إذا ضاق الغلام بذلك ذرعا ، ألقاه (فرنسوا) على الأرض وفرّ كأنه لص وهو يصيح به :

— وداعاً ... وداعاً إلى الأبد !

على الطنطاوى

الصيف خفيف هـــــذا العام

لأن

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم لكم المنسوجات القطنية

الخفيفة على اختلاف أنواعها

معتدلة فى أثمانها جميلة فى ألوانها

فبادروا بأخذ طلباتكم

سر الحقيبة الصفراء

للكاتب الروسي سيدريك ديمتروف
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

سيدريك ديمتروف ابن غير شرعي لجورج ديمتروف أعدى أعداء الحرب والفاشية ؛ وقد ولد في أوائل هذا القرن من إحدى سيدات البلاط القيصري مدام ستيلا نوفيكوف ، ونشأ الصبي في بطرسبرج ، ثم تلقى العلم في سويسرا وألمانيا وإيطاليا وماتت أمه قبيل الحرب العظمى وتركت له ثروة ضخمة تبرع بها للثورة واعتمد على أوراقه وأقلامه فأخرج « مدينة الصفر » و« أتون الثورة » و« لا تكتموا الشهادة » ، ومن قصصه القصير : « سر الحقيبة الصفراء » وفيها من تحليل النفس ، وحبك الوقائع وعقد الحوادث ما لا يقدر على معالجته إلا هؤلاء الكتاب الروس المنفردون في العالم بطرائقهم الفذة . ومؤلفنا في وسط العقد الرابع ويعيش في لندن

إسمع ! إن نصف أعمالنا قبل وقوع الحرب المقبلة يقوم على التجسس ، وينهض على استراق أسرار الأقران والأعداء ؛ وقد بثثنا عيوننا وأرصادنا ، ونشرنا آذاننا، ونثرنا أسماعنا ، في ناحيات الدنيا وبلادها كافة ، فما تركنا بلداً ولا مدينة أو قرية في دولة قوية أو مملكة ضعيفة ، نظنها ستثور في وجوهنا إذا وقعت الواقعة إلا ملأناها بعيوننا ... أنظر إلى هذه الخريطة الجغرافية وقل لي ماذا ترى ؟

— أرى دوائر صغيرة تمثل البلدان ، وخطوطاً غليظة وأخرى دقيقة ، تدل على سكة الحديد وطرق السيارات ، وعلامات مبهمة وتصاوير بعض النبات والحيوان ورموزاً شتى

— إعلم أنه من برلين إلى أمستردام ، ومن دنكرك إلى شربورج ، ومن هارتبش إلى بريستول ، ثم من كاليه إلى بيافور ، ومن باريس إلى تاراسكون ، شباك محبوكة وحبائل مفتولة ، أعينها وخيوطها وسداها ولحمتها ، رجال ونساء من أذكى بني الإنسان ، وأحلامهم وأعمقهم دهاء، وأوسعهم حيلة ، وأغناهم موارد، وأقدرهم على فنون الكلام والكتابة والأخذ والعطاء .

وستكون مدينة بازيل قاعدتنا ومركز دائرتنا ومحط رجال أعواننا كما كانت برن وبيارتز في الحرب الماضية . وستعلم عما قليل من رئيسك المباشر لمَ وقع الاختيار على بازيل . ويكفي أن تعلم الآن أنها مرتبطة بيولوني عن طريق شالون ، وأوستند وباريس وانتورب وبروكسيل وروتردام ولوزان بخطوط حديدية ثابتة وقديمة !

— فهمت لماذا اخترتم بازيل

— لا تقل « اخترتم » بل قل اخترنا ... ولكنك لا تعلم « مأموريتك » المباشرة . لقد ضاعت من رسولنا في « تشافهاوزن » مجموعة مدهشة تنطوي على حقائق غريبة ثابتة لا يشوبها للريب شائبة ، تدل على صحتها تقارير مهولة اختلسها جاسوس فرنسي أثناء تجسسه على مندوبنا بعد أن قتله اغتيالا في فندق عتيق في شاموني . وإن ما لدينا من الأخبار يقنعنا بأن القاتل لا يزال في تلك الناحية ، فسددنا عليه الطرق وضيقنا الخناق ، وأحطناه بسياج من الرقباء في أعماس

وكيلوز وشامبيرى وتورينو وسانتيا وأرونا ودومودوسولا ، ولن يفلت من براثننا مهما كلفنا اقتناصه من مال ونصب وأعمار رجال

— حتى أعمار الرجال ؟

— نعم وأعمار الرجال ، فان فى تلك المجموعة المختلسة مصورات يدوية عن المواقع والأماكن والحصون والثغور والشواطئ والمعاقل الفرنسية والانجليزية التى كان رجالنا يدأبون — هذه السنين الطوال من بعد الهدنة إلى الشهر الماضى — على تصويرها ، وأنباء وزارات الحرب فى أوطان ماريان وجون بول ، عن دقائقها وعظائمها . ونحن نطلب هذه الوثائق ولا نطلب الثأر الآن

— وهل يطل دم صاحبنا الذى راح ضحية واجبه ،

— نعم .. ولكن إلى حين . . لأننا نطمع فى استمالة هذا الجاسوس الينا ، فنضحي بشهوة الانتقام فى سبيل احراز خدمته وتسجيل اسمه فى جدول أتباعنا . واليك الآن هذه الجوازات التى تنطبق على الشخصيات المتعددة التى ستتخذها أثناء تنقلك فى مختلف البلدان ، وهذا دفتر الشيكات الذى يبيح لك أن تنفق ماشئت فياشئت ، وهذه وسيلة الاستعانة عند بلوغ الاخطار اقصى غايتها ، وهذا المسدس الموعود الذى يطلق النار دون صوت أو دخان ؛ ومع السلامة ! نحن لا نراقبك ، ولا نقتفى أثرك ، ولا نسىء الظن بك ولا نعرقل مسعاك ولا نبخسك جهودك . ونكافئك سواء أنجحت أم لم تنجح ، ولكننا نقتلك شر قتلة إذا اقترفت خيانة بعد أن نأتمنك

* * *

بدأت عملى فى نفس اليوم الذى تلقيت فيه الأوامر والتعليمات ، فسافرت من فلورنس (فيرنزه) إلى باريس ، فى قطار الليل السريع الذى قطع الحقول والوديان واخترق الانفاق ومزق أحشاء الجبال فى سمبلون وسان جوتار بسرعة مائة كيلومتر فى الساعة ماراً ببولونيا وبارماوفيدانزا وميلانو ونوفارا ولونيو وبريج وسان مورتيز ولوزان وجنيف . وهنا — فى جنيف — قطعت خطة السفر لأستريح — ولأقضى بضعة أيام فى أحضان « جوتى » حبيبتى الروسية التى بعثت إلى ببرقية تقول فيها : « لن أستطيع على سكوتك صبراً بعد اليوم . فأين أنت ومتى أراك ؟ » فالقطنى ساعى البرق فى شارع ليوناردو دافنشي عدد ٦ قبل سفرى بساعة واحدة فى منزل سينيورا ماريا ستمبرينى الذى اتخذته مستقراً وملجأ خفياً . فعجبت من توارد خاطرها وخاطرى لدى السفر ، ولكننى لم أشأ أن أجيبها ببرقية خشية الرقباء ، فصبرت على الصمت وكان أحر من الجمر

وعند ما وصلت إلى محطة جنيف فى صباح ذلك اليوم السعيد الذى حددته الأقدار للقائنا ، شعرت بحزن شديد عند ما رأيت الأهل والاخدان ينتظرون أصدقاءهم وذويهم على الأفاريز ويقابلونهم بالقبل وباقات الأزهار . ولا يقدر هذه اللذة إلا الذى يحرم منها ؛ ويكون الألم شديداً بقدر نصيبه فى العمل على الحرمان . فأنا الذى لم أكتب لها ولم اشعرها بمقدمى ، وإلا كانت أول قادم وأبكر منتظر . فعلى وحدى تقع مسئولية هذه الوحدة التى شعرت بها لدى النزول من القطار . ولم يكن لى متاع أحمله أو أشغل بنقله ، فقد وكلت أمر الحزم والشحن و « الشيل والحط » والرفع والخفض والتخليص والتفتيش ، إلى وكلائى فى شركة هوبز ومونتفردى ، التى اشتهرت بالحذق فى هذه الأعمال . ولم يكن فى حراستى

سوى حقيبة صغيرة من الجلد الأصفر الناعم ، وليس فيها شيء سوى أدوات الزينة والحلاقة والمباذل وقنينة من المداد المعطر أملأ به أنابيب أقلامي. فلما بلغت موضع التفتيش الجركى مددت يدي بالحقيبة بمنتهى السأم والضجر وعدم الاكتراث . ولم أشأ أن ألقى نظرة على وجه الموظف المختص . ويظهر أن ذلك المسكين لحقته العدوي من ضجرى وعدم اكتراثى فلم يأبه لفتح الحقيبة ، وقنع بأن وضع عليها علامة المرور بالطباشير ، فتناولت الحقيبة وكان فى نفسى رغبة قويه أن أتخلى عنها واستغنى عن محتوياتها ، لم يمنعنى عن هذه الهفوة — التى لم يكن فى الوجود وسيلة لغفرانها إن كنت وقعت فيها — إلا منظر رجل غريب الأطوار أخذ يحدق فى الحقيبة ويريد أن ينقض عليها كالباشق؛ ولم يمنعه من خطفها وإلا نظرة سريعة ألقاها على حقيبة صفراء أخرى كانت فى يده ، وقد وضع عليها الفاحص الجركى حرف P علامة الإذن بالمرور — فلما خفت أن يخطفها ذلك الرجل، لمجرد الطامع فيها لمماثلتها لحقيبته تحركت رغبتى فى الاحتفاظ بها ، لا لأنها ملكي وتحتوى ما أحتاج إليه فى حلى وترحالى ، بل ضناً بها على الطامع . وخرج الأخرق صاحب الحقيبة الصفراء وخرجت فى أثره أتمطى ، وأنا لا أعيره اهتماماً ولا أجعل له أقل شأن . وكان كل اهتمامى واكتراثى وانشغال بالى وحسابى وترقبي محصورة فى لقاء (جوتي) التى أرسلت إلى تقول إنها فى شارع فيوجربناديه(١) وعندما صرت فى نهاية الأفرز خطر ببالى أن أشترى جرائد الصباح ، فلتُ إلى معرض الكتب والصحف الذى تتعهده فتاة شقراء ، وأخذت منها ما أشتهى ودفعت ثمنهـا باسماً للحسناء البائعة ، فابتسمت هى الأخرى وقالت في صوت خافت :

« موسيو ايه تريه جانتى » أى إنك ظريف ياسيدي . فلمحت زنزانة التليفون بجوارها وخطرلى أن أبحث عن وسيلة تصل بينى وبين جوتى قبل أن ألقاها ، فما أحب أن أفاجىء الحبيب أو العدو . ولكننى لم أعلم كيف أخاطبها فتجاسرت وتحاملت على المصادفة والحظ ودخلت وحصرت نفسى وأخذت أبحث فى دليل التليفون وأقلب صفحاته وأقرأ الأسماء والألقاب والأرقام والشوارع والأزقة وأغرق بين الأسطر ، وأسرح بخيالي دون أن أشعر وأدفع بالدرهم بعد الدرهم فى خرق ضيق ، وأسأل مراكز المخاطبات ــ ولا أدرى كم طالت وقفتى ــ وعندما خرجت وألقيت نظرة على وجه بائعة الصحف الشقراء ، رأيته ممتقعاً وقد مدت إلىّ يدها بورقة مطبقة ، وكانت حركة الحياة فى المحطة لا تزال ضئيلة لبكور الوقت — ففتحتها على مهل ، وأنا أظن الفتاة الطائشة تستدرجنى إلى موعد فإذا فيها أن رجلاً طويلاً أسود الشعر يتعقبك ، وقد عاد يبحث عنك كالمجنون وهو يحمل حقيبة صفراء، وقد ضللته حتى لا يقع عليك بصره . فانزل إلى الممر السفلى لتصعد فى شارع مونبلان فلا يدرك خطاك ؛ وهو الآن فى المقصف. فانحدرت فى الطريق الذى اختارته لى وأنا بجنيف جد خبير ، وأطعت الشقراء بائعة الصحف وعملت برأيها لشعورى بعاطفة الحنان تنمو فى قلبها نحوى ، كما أن منظر الرجل الطويل المجهول لم يَرُقها ، ولعله أزعجها كما أزعجنى . وفى تمام الساعة التاسعة كانت قوتى خارت من الجوع الذى يعقب

(١) رماة قنابل اليد القدماء — واسم قنابل اليدماخوذ من الرمان للمشابهة

السفر الطويل ومن تعب الأرق الذى يصحب اهتزاز القطار . وللمرة الأولى رأيت باب الفردوس مفتوحاً أمامى . وما الفردوس سوى « أنديا هاوش » مشرب الشاى الشهير ، وفيه من الفطائر والحلوى والزبدة والفشدة والشهد مايعجب الأعين والأفواه ، فدخلت إليه وأفطرت إفطاراً فخماً ، وكان أول مال أنفقته على سد رمقي من مال الوثائق المفقودة

وكان بجوارى رجل يجرع الشاى الهندى المجيب ويقرأ جريدة « جورنال دى جنيف » وهو يقلب كفاً على كف كمن خسر مائة ألف فرنك فى سوق القراطيس المالية . وكان يخالسنى النظر كأنه يريد مهاجمتى في حصن صمتى ، وكنت إذ ذاك مشغوفاً باستطلاع أمور الناس لا سيما كل من كان غريب الأطوار مثله ، فابتدرته قائلا :

— حقاً أن هبوط الأسعار فى سوق الأوراق لكارثة لها ما بعدها . ولا تنس أن أمريكا هى البادئة بالاخفاق فى المضاربة ، وغداً يصير أرباب الملايين وملوك المعادن عالة على العمال والفلاحين

فبدت الدهشة على وجه جارى الذى كان يتجرع الشاى الهندى وقال :

— نعم ؟ هل تتحدث إلىّ ياسيدى ؟ فدبت خجلاً واستحياء ، ولكنني تذكرت أن مهنتى تحتاج إلى سفاقة الخد وبرود الطبع وتحمل الأذى ، فاستجمعت فلول شجاعتى التى شتت شملها سؤال الرجل وقلت : نعم إليك ، لأننى أدركت أنك تفهم جيداً قيمة القراطيس وتحمل همومها . فقال متعجلاً متعمداً مقاطعة حديثي :

أى قراطيس ؟ أنا أندب حظ العالم ، لأن شبح الحرب يختفي شيئاً فشيئاً ، وحمامة السلام « بسلامتها » تطل من وكرها المملوء بالثعابين والأفاعى ...

فدهشت وأيقنت بجنونه وخوفه ولوثته وقلت : أظنك تريد عكس ما تقول ، وتمدح السلم وتقدح فى الحرب . فألقى الرجل جريدته والتفت إلىّ محدقاً وقال : وأنت سخيف آخر تمجد السلم وتنفر من الحرب . ألا تعلم ياسيدي أن السلم إذا ظلت فى الأمة دهراً لم تلبث أن تتسلط فيها المآرب الشخصية الحقيرة والأغراض الدنيئة المريضة ، وتقوم الفتن والمكايد ، ويمحو الترف آثار الكمال الاجتماعى ، ويحتكر المال قوة متطرفة غير شريفة ولا مشروعة ، ولا تجد الشخصية الكبيرة الاحترام اللائق بها ؟ إن زهرة الانسان لتذبل ، وجذوره لتموت ، فى زمن السلم وعهده ، وتذوى الشجاعة وتحتضر فى ظلال الراحة وخمائل السكون . إن الهدوء والمساواة والطمأنينة (التى تجعل الناس أنداداً وأشباهاً) للهاة العاجز ... ولكن الحرب تظهر شجاعة الرجال وتعلى النفوس الوضيعة ، وإن الجبان والرعديد والخائف والمرتجف (ونظر إلىّ نظرة قاسية كأنه يقصد إلىّ بهذه المخازى ليتنامى اسمه خيال حماسة الحرب

فقلت له : أنا على رأيك ، ولكن لاينبغ عن فطنتك وأنت بسمارك هذا الزمان أن الحرب التى تشيد بذكرها ، وتتحرق فى انتظار اشتعال نيرانها تجر فى أعقابها نكبات مادية وذهنية ؛ وترعب قلوب الناس والملائكة ، ولا تطرب بدويها إلا أهواء الشياطين والمردة التى تعردها الفظائع الوحشية التى تقع فى القتال

فاندلع فى عيني محدثى لهيب عجيب وقال :

— لا شك أنك تنتمى إلى بعض ذوى تلك

الألقاب الكاذبة ، والمراتب الجوفاء التي تربت في أحضان السلم ورتعت في بحبوحة الرخاء زماناً طويلا. فأنت وأصحابك تخشون الحرب لأن الشخصيات الكبيرة تحل فيها المحل الأرفع ، وتخطو القوة والاخلاص والصدق والشرف إلى الطليعة لتلعب دورها الواجب ، ويتجلى الثبات والعطف والعظمة والبطولة والرحمة والاحسان

فضحكت ضحكة كادت تفقد الرجل صوابه وتخرجه عن دائرة الصبر ، ولكنه تجلد وأخذ يحرق الأرم ويمضغ لسانه فقلت له : والهزيمة ؟ الهزيمة ياسيدى، ألا تذهب بجمال ماوصفت الهزيمة النكراء، خيبة المغلوب وإذلاله تحت أقدام الغالب ؛ هل نسيت قول القائل :

« ويل للمغلوب ! » فكان الويل للغالب ؟

فقال الرجل الذى يتجرع الشاى :

حتى الهزيمة ! الهزيمة نفسها فيها ثمرات غالية سامية ، فهى وإن ساقت غالباً الضعف والبؤس والشقاء ، مؤدية كذلك أحياناً أخرى إلى إحياء جديد وانتعاش قوى ، لاسمة للفتور أو العلة فيه . وهى كذلك واضعة أساس نظم حيوية جديدة . قلت له : إذاً لا أخطى إذا ثبت فى ذهنى أنك تناهض أمانى السلام التى تتردد فى خواطر الأمم : فقال حبيب الحرب :

يجب أن نقضى على تلك المذاهب الخيالية الواهية الواهمة ، ويجب أن نشهر بها أمام الناس ونفضح أمرها ونعلن حقيقتها ، وإنها فكرة خيالية ضعيفة عليلة طائشة ، بل ثوب من أثواب الرياء السياسى وحجاب من حجبه . ينبغى أن يعلم الناس فى كل مكان أن بقاء السلم لن يكون غرضاً للسياسة العالمية بل يجب أن نكرر ونسهب فى فضيلة الحرب ونُعاها ووجوب وقوعها والمثل العليا التى تنطوى عليها . ينبغي أن نلقى فى وجوه « رسل السلام » ودعاتها شعراً قديماً :

« أأحلام بالسلم وعهوده ؟ ألا فليحلم به من يشاء ، أما نحن فليكن صراخنا الحرب ! الحرب ! وهلموا إلى النصر » وأظنه لجوته

ونهض الرجل بعد أن ألقى بالجريدة وألقى علىّ نظرة استصغار شفعها بتحية: «عم صباحاً ياسيدى » كانت أقسى من السهم وأحد من السيف وأوقح من الصفعة على صدغ اللئيم . وقد أردت أن ألحق بالرجل وأطلعه على حقيقة شخصى ، وإننى من طلائع الحرب المقبلة ، لا من دعاة الهزيمة كما وَهِم وتخيل . وقد نهضت وحاولت النداء عليه ، ثم عدت فتذكرت أننى من رجال الخفية ، وقد وكل إلىّ عمل دقيق ، وإن فى جيب صدارتى غلافاً مختوماً مشتملاً على الأوامر والنواهى التى سأخضع لها حين أفض الغلاف وأتلوها وكأننى أتلقاها من رئيس مطاع. ومن يدريني أن هذا الرجل الذى وقعت عليه مصادفة لم يكن هو نفسه من أعينهم ومن آذانهم؟ والحمد لله الذي أطلعه علىّ فى ثوب رجل مسالم ، مبغض للحرب فراح يحتقرنى ويزدريني

ثم رفعت عينى إلى الساعة الكهربائية الدقيقة التى تنبض عقاربها بتيار متحد يحرك عقارب سائر الساعات المعلقة فى أفرع «أنديا هاوس» فى نواحيات المدينة كافة . وكانت العاشرة فنهضت ودفعت الحساب بين يدى الصيرف . ولما صرت فى شارع مارتن لوثر الحاذى لساحة بوليفار قفزت فى سيارة وقلت للسائق بصوت عال : إلي باستيون (وهو بستان عام فى ميدان ملعب الكوميدى يؤدى إلى الجامعة — وكانت غايتى أن أضلل أى رقيب قريب

وأن أسير على قدمى من حديقة باستيون إلى شارع ڤيو جرينا دييه حيث تقطن جوتى . وفى أقل من خمس دقائق بلغت بى السيارة باب الحديقة فترجلت ودفعت وأخذت سمتى إلى مقهى «كافر كوان دى ڤان» الذى يتوسط الساحة ويشرف على الشوارع الأربعة كادروج و كوراترى وجنرال ديفور وفيلوسوف(1) وشربت قهوة سوداء ، لا تشوبها قطرة من الحليب الذى لا يشربه إلا الأطفال والنساء . ثم قمت أسير متلكئاً وكأننى نسيت الحب الشديد الذى كان يملكنى من أثر الحوادث التى رفعت الأقدار غطاءها منذ نزلت من القطار في المحطة

كان شارع ڤيوجرينا دييه فى هذه الساعة الصباحية هادئاً فنظرت إلى الرقم المعلق على الباب؛ فلما أخذ بصرى بعدد ١٧ خفق قلبى ، وأسرعت بالتصعيد فى الدرج . ودققت البـاب دقة لطيفة ففتحت لى خادم عجوز ما رأتها عينى قط؛ فسألتنى عن طلبي، فلما ذكرت لها إسمي أغلقت الباب فى وجهى حتى تخبر مولاتها ثم تعود إلىّ فتأذن لى أو تطردنى . فشعرت بحزن عميق وأحسست المهانة تحز فى قلبى كالمدية ، وصممت أن أطرد هذه الجحمرش جزاء على أنهـا أقفلت الدرفة فى وجهى ، حتى كأننى لا أؤمن على نظرة خلال المواربة بين درفتين، فوقفت مشبوهاً شارد اللب ، لاأدرى كيف أعلل ماحدث. وقامت في ذهنى عاصفة هدارة من الأفكار المضطربة. وبقيت فترة الانتظـار ودمى يغلى فى عروق وقد صممت على ألا أصـبر على هذه المذلة ولو عدت أدراجى ، فرفعت بنيقة ممطتى حول عنق ، وأدرت وجهى لأهبط الدرج كما صممته ، وإذا بيد قوية تقبض على ذراعى فرجعت بعيني فاذا جوتى خارج الباب بوجه باهت ممتقع ، وجسم مرتجف ، وهى تقول : أنت ؟ تقف بالباب وتنتظر الاذن بالدخول ؟ فأخذتها بين ذراعى وجففت بيدي دموع الفرح التى ذرفتها عيناها

* * *

من العبث أن أصف لك ألوان السـعادة التى تذوقتها فى عشرة هذه الحبيبة الولهى ، التى بدأت تشعرنى بالهناء العائلى وتسكب في شغاف قلبي أفاويق السرور واللذة، وتسكرنى برحيق حبها وحنانها حتى كانت الدموع تنبجس من عينى كلما فكرت أن سعادتنا هذه موقوتة وموقوفة على سفرى لمطاردة ذلك الوغد المحبوس المحاصر بين مدن ست ، لا يملك النفاذ من آفاقها . لم تقف جوتى على شيء من أسرارى ، ولم تعلم مقدار ما أحمل من النقود، أو نوع ما أخفى من السلاح ، أو عدد ما أملك التقمص فيه من الشخصيات . فكانت إذا سألتنى عن سبب حضورى المفاجئ قلت لها : لأحضر دروس الجامعة فى مدرج الغرباء ، وأرقب أعمال جمعية الأمم عن كثب ، ولا أريد أن أرى أحداً سواك ولا وجهاً غير وجهك ، ولا أتناول طعاماً إلا ما تمده يداك وتطهينه بنفسك ، ولا أنظر فى عينين غير عينيك ، ولا أنعم فى الليل والنهار بجسم غير جسمك، ولا أسمع صوتاً غير صوتك ، ولا أشعر بسعادة غير التى توحيها رقة شمائلك، وذلك إلى أن يحين وقت عودتى إلى مقر عملى فى فيرنزة . وكانت جوتى تحسبنى لا أزال فقيراً ، فكرست وقتها ومالهـا لتوفير راحتى وهى لا تسألنى شيئاً ولا تحاول الوقوف على دخيلتى . فقلت فى نفسى : إن فى النسـاء الهامات وأحاسيس خفية نفتقدها نحن الرجال فى نفوسنا فلا نجدها ،

(١) فى خريطـة جنيف التفصيلية شارع إسمه بولفار دى فيلسوف ، وهو المؤدي من الساحة إلى الجامعة

والمرأة مسلحة من كل جانب ، وهى أوسع حيلة من الرجل وأكثر استعداداً ، فلعها تعرف كل شيء وقد تعرف أكثر مما أعرف . من ذلك أنها كانت قد أعدت لى عدة زينة وحلاقة وعطوراً ، حتى الباذل وثياب التفضل (وكانت من صنف غالٍ) . وهذا الذى حدانى لاهمال حقيبتى الصفراء ونسيانها مهجورة فى أحد أركان غرفة النوم الأنيقة التى أثثتها حبيبتى وقسيمة روحى ، ووصلتها بهو الجلوس والمطالعة ، وزينتها كل صباح ومساء بالأزهار اليانعة ، ووضعت فى إحدى زوايا البهو مذياعاً صغيراً بحجم اليد ، ولكن صوته كان كصوت الجن قوة ، فشبهته بفمم يحتوى عفريتاً ينشد ويلهو ويضحك ويختلس الأخبار من أقواس الدنيا وأقطارها ليرويها لنا . وفى إحدي الليالى قالت لى جوتى بعد أن خرجت من الحمام وعصبت رأسها برباط من الحرير الأزرق وبدت عيناها اللوزيتان بلون الزيتون الأخضر القاتم وليونة القطيفة الناعمة :

— نفسى تحدثنى أننا لن نفترق بعد هذا اللقاء ، وأن الحياة ستجمع بيننا إلى آخر العمر . وقد تعودت من نفسي أنها لا تخدعنى ولا تكذبنى

ثم أخذت تمر أصابعها فى شعر رأسى فى خفة وسرعة

فضحكت على الرغم منى لعلمى بما تبطنه الأيام لنا من فرقة ، وإننى قد طرت إليها خلسة ولحقت بها طيشاً ورغبة فى اقتناص أيام معدودة ، قبل أن يستحيل اللقاء علينا . ولن أغادرها حتى أترك لها نصيباً من المال يكفى لنفقتها أعواماً حتى ولو اشتعلت نار الحرب ودامت أمداً ، ولكننى لم أشأ مفاتحتها بشيء من هذا لترسل أقوالها وأفعالها على سجيتها ، فقد عشت أعواماً طويلة وجدت خلالها إن قلب المرأة عميق ، لا يمكن ارتياده ، وسيظل هكذا إلى الأبد . وكنت أنظر تارة إلى نفسي وما يجول بها ، وطوراً إلى وجه جوتى الحرى الهادئ الجميل الندى فأشعر بالحزن وتأنيب الضمير حيال كتماني وصراحتها . وكانت جوتى لا تحول عنى عينيها كأنها تحاول أن تلتهمنى بهما

وفى تلك الليلة طرق بابنا للمرة الأولى شيخ مسن عرفته جوتى من أبناء وطنها فدخل كاشفاً عن رأسه الجميل الممتاز وشعره الأبيض المتموج ، وقد حمل نفسه فى خفة ظاهرة ونشاط موفور على رغم انحناء عوده وتقوس ظهره ، فشرب الشاى وتسمى باسمه المنتحل جيروم بادواسكى وتكلم فى الأدب والسياسة والفنون والتاريخ إلى أن دنا من موضوع الحرب المقبلة فبردت عروقى وتفككت أوصال مفاصلى ، لأن الحديث أعاد إلىّ ذكرى مأموريتى التى سوف تشتت شملى وتهد دعائم البيت الذي بدأت أحبه وآلفه وأركن إليه فى نومى ويقظتى

قال الشيخ المسن :

« إن الحرب يا سيدى لا شك مقبلة ، وإنى أراها بعين الخيال تهرول مسرعة إلينا تخب خبباً مرعباً فى دروع من الحديد والنار وقد ربطت رأسها برقعة ملطخة بالدماء ، أكاد أسمع قعقعتها ، وأرى لهب مدافعها جاءت لتخيط خيطتها الأخيرة . أتظن الجوع أو التناحر على السلطة يسبب هذه الكارثة الشوهاء ؟ كلا إن سببها الفروق بين الطبقات والنفور المستحكم بين العامة والخاصة ، وكلاهما راجع إلى زهو الأغنياء من جهة وخشونة الفقراء من جهة أخرى . والاختلاف فى التربية أكثر فى التنفير من الاختلاف فى الثروة . أما نحن الروس فقد رأينا فى شبابنا هدم بعض النظم المعطلة للتقدم الحقيقى الدين والحياة

الزوجية والامتلاك والحكومة المركزية

فقلت مندهشاً للشيخ المسن : وكيف تعيش الانسانية بدون هذه الدعائم العريقة القويمة وهي بمثابة العُمُد المسلحة التي تحمل السقوف العالية وبدونها ينهار البناء ؟

فابتسم الشيخ وقال : أما الدين فيجب عندنا أن تقوم على أنقاضه العلوم العصرية ؛ وأما الحياة الزوجية فيجب أن تستبدل بالاتحاد الحر بين الذكر والأنثى ؛ وأما الامتلاك فبالاشتراكية ؛ وأما الحكومة المركزية فبمجموع ولايات مستقلة .

كانت هذه أحلامنا منذ خمسين عاماً ، فلما تحققت أسفنا أشد الأسف ، لأن الحقيقة لم تنطبق على الخيال. وقد جنت علينا الفوضى أشد من جناية المظالم ؛ وإن نفسي تحدثني أن أكتب قصة كتلك التي كتبها مواطني وصديقي تشرنشفسكي . فقالت جوتي : آه شتو د يالاتي ؟[1] إن الأفكار الثورية قد استحوذت على جميع الطبقات والأعمار والصناعات والمهن هنا في سويسرا وفي أوربا الغربية بأسرها ، حتى لندن وباريس وروما الفاشستية وبرلين التي يحكمها هندنبرج ، في كل مكان تعلن الثورة جهاراً في الطرق ، وتلقى علانية في الشكنات وتذاع في إدارات الحكومة ومصالحها ، بل إني لأعتقد أن الشرطة أنفسهم يغضبون لها ويثورون »

لقد كان كلام الشيخ المسن عجيباً مزعجاً ، حتى لقد شعرت أنني أخون وظيفتي وأنا أصغي إليه ، وإن كنت أستطيع أن أصفه بالخرف لأتخلص من وزره ، ولكن غاظني أن جوتي تعرف أمثاله وتأويهم وتسقيهم الشاي . ولكنني لم أملك أن أقطع حديثه ، وصممت في نفسي أن أفاتحها بعد انصرافه في ضرورة الخلاص من تلك الصداقات المريبة

وشرب الشيخ المسن چيروم بادولسكي أقداحاً من الشاي ، وكأنها مترعات خمراً معتقة صفراء يسكر بها فقال :

— كان الشاب منا صلب المكسر ثابت الجنان رابط الجأش متأهباً لتحمل التضحية في سبيل فكرته ؛ وكنا نتزيا بزيّ العمال لندخل في ديننا الطبقات الجاهلة من العمال والزراع ونسر لهم في آذانهم أن الواجب أن يتخلصوا من موظفي الحكومة ومُلاّك الأرض وهم أسباب الحالة الحاضرة التي آلت إلى أشد الفساد وأنكر الفوضى.

وهنا دق الباب دقاً عنيفاً ، وكان قد مضى على إقامتي في الدار أربعة عشر يوماً ، ولا يعرف مخلوق اسمي وعنواني سوى عامل مكتب البريد في يلا نيليه فقد أفضيت إليه بهما لأنني كنت أنتظر إشعاراً من خدمة النقل البخاري « من الباب إلى الباب » التي عهدت إليها في توصيل حقائبي من فيرنزة إلى جنيف ؛ ولم أكن أعلم أن عادتهم أن يفاجئوا عملاءهم في أي وقت من أوقات الليل أو النهار فانتفضت ونظرت إلى جوتي نظرة لم تفهم معناها . وتخيلت الرجل المجهول الطويل الذي تعقبني في المحطة ، ثم البحاثة الصاخب الذي يريد الحرب مهما كلفت شعوب الأرض من عناء وبلاء وهلاك ؛ ولم يخطر ببالي غيرهما ، حتى ولا رئيسي الذي أباح لي « بطاقة بيضاء » في المال والوقت والتدبير. ونهضت جوتي إلى الباب وسمعت الفتح والهمس ، ثم خطواتها وهي تعود حاملة بياناً بحقائبي التي كانت في سيارة بأسفل الدار فحملها الرجل ونقدته الحلوان ولم تقل له أكثر من أحسنت بالمبادرة فقد كنا في الانتظار

(١) بالروسية ماذا نحن فاعلون ؟

وقد رأى الشيخ المسن أن ينهض فقالت له جوتى : لا تقل إلى اللقاء بل الوداع يا عزيزنا جيروم فقد صحت عزيمتنا على السفر ، وها هى الحقائب قد أعدت وأنت تراها . فهز الشيخ يدها واغرورقت عينه اليمنى بدمعتين جالتا ولم تذرفا وقال والعبرات تخنقه :

— ها هو البيت الأخير الذى كان يأويني ويظلني يقفل فى وجهى إلى الأبد . فنظرت جوتى إلىّ ورأت تأثرى وقالت : اننا لن نلبث أن نعود فلا تبتئس ياصديق .

قال : تعودين ، ولكن هل أكون هنا ؟

— أتنوى السفر أنت أيضاً ؟

وخيل إلى أن جميع أنواع الحزن قد تجمعت فى تلك السحابة من الدموع التى تطفر من عينيه وقد أجاب :

نعم : قد أسافر ... سفرة بعيدة جداً جداً . لا يعود منها أحد قبلى ولا بعدى .

ولما نزل جيروم وغاب صدى وقع أقدامه ، عادت جوتى وكانت تودعه ، وجلست على الأرض أمامى ووضعت رأسها فى حجرى وبكت وكنت أفهم بكاءها وأندم على انني سببته ، ولكننى فى الحق اتهمت نفسى بغير جريرة . فقلت لها لم تبكين ياجوتى ؟ ألأن وصول هذا المتاع فى الحقائب قد يكون نذير الفراق ؟

قالت : كلا إنك باق بجانبى إلى النهاية . ولكن أبكى لأننى أقفلت بابى فى وجه هذا الشيخ المسن المسكين الذى ليس له أحد .

— وما الذي دعاك إلى اختراع فكرة السفر ؟

— لأننى لمحت أثناء حديثه أنه لا يروقك ولا يرضيك وقد يقلل من سعادتك أن يمشي مجلسنا من وقت إلى آخر .

فلم أملك حيال إخلاصها الا أن اعترف لها بالواقع وألتمس الاعذار لنفسى .

وعدنا إلى السعادة نقتطف ثمارها الدانية ، وأنا واثق انها أيامى الأخيرة فى عالم الهناء الصافى من الأكدار . وكنت أشبع رغبات جوتى ، وأقرأ صحف الأخبار ، وانتبع أحاديث المذياع المكذوبة لأستخرج الصدق من بين ثناياها ، وأتلقف أنباء عصبة الأمم التى كانت فى ريعان شبابها والسقم يدب فى مفاصلها ويعجل بالقضاء عليها لحسن نية والديها وعاشقيها وخاطبي ودها الذين دسوا لها السم فى الدسم . وكنا حينما نلهو باخراج الثياب والكتب من الحقائب ونصفها فى الصناديق والأدراج لنوهم أنفسنا بأننا باقون فى الدار بقاء استقرار وإقامة .

وكانت هذه البلهاء جوتى تضحك فى وجهى وتطيل النظر إلىّ وتقول :

— أعطني طفلاً يشبهك ! لا تغادرنى قبل أن ألد لك ولداً . فكنت أضحك من فكرتها وأعجب كيف تحدثها نفسها بهذا الخاطر . ولما كانت جوتى واسعة الخيال وشديدة التعلق بالكتب كانت تداعبنى حيناً قائلة :

— أريد نسخة طبق الأصل منك بلا تنقيح . ألا ترى أن المطبوعات الأولى هى الأصيلة الغالية لأنها نادرة ؛ لقد كنت متعطشة للقائك ولا أستطيع صبراً على بعدك

فقلت لها : وإذا أرغمت على السفر ؟

قالت : قد توافق عزيمتك ماجمعت عليه نيتى لأنه ليس فى سفر الانسان مفرداً أية لذة . إن لكل إنسان حقاً محدوداً من السعادة ، وإن مثلى ومثلك خليقان أن ينالا حظاً من السعادة وقتاً ما ، فليكن من الآن فصاعداً

وقد اتكأت على جسمي بجسمها اللين اللدن وقالت :

لقد طار إليك قلبي مرفرفاً وكلما زدتني اتصالاً زدت اشتعالا ، إنني لا أرتوي ولا أقنع . في وسعي أن أعرف السبب ، إنني لا أشبع منك إلا إذا اطمأننت إلى بقائك بجانبي

وكنت في تلك اللحظة أقرأ دبلي ميل التي كانت تنشر في أعمدتها رسائل « قلمنا الخاص » . فوقع بصري على هذه الرسالة الغامضة « إلى رجلنا في ا و ك و ش و ت و س و ا و د . إن أملك المنشود لدى امرأة مديدة القامة سوداء الشعر ، وحارس الكنز يحمل حقيبة صفراء لا تفارقه . كل شيء بشأنك على ما يرام فاتبع خطة السير التي ترسمها لك الكواكب السيارة »

فذهلت من غموض الرسالة أولا ، ثم رأيت بارقة الأمل في حل رموزها . وكانت جوتى تتابع حديثها قائلة : إن الحب يجعلني كالريح والمطر والبرق والرعد وأنت كذلك ، فظللت كالمشدوه

وأخذت جوتى تتأثر في الحديث الذي أيقظها به الحب العنيف

وأخذت تسرد على مسامعي قصة حياتها . وكانت تحدق فيّ بقوة متجهة بصدرها وخصرها إليّ ، ثم إذا هي تعانقني بعنف ولهفة وتنهد . ففكرت في مخرج من هذا الموقف حتى يعاودني هدوئي . فقلت لها : إليك هذا اللغز ، أتعرفين كيف يكون حله ؟ وقرأت لها الرسالة الغامضة فأصغت إليها في سمت عميق وقالت : وما يهمك من أمر هذا اللغز أو الرسالة الرمزية ؟

قلت : تسلية محض ، لا أكثر ولا أقل

قالت : إن المقصود بالمرأة المديدة القامة رجل مثلها ، والرجل الأول هو بلاريب رسول أو وكيل أو منتدب ، والكنز أوراق أو وثائق ، لأن الحقيبة لا تحتمل أكثر منها ؛ أما الكواكب السيارة فهم الرؤساء المتنقلون . وأظن هذه الرسالة من الخدمة السياسية السرية في إحدى الدول العظمى ، أما حروف الهجاء فهي أوائل أسماء بعض المدن ، فلو أنها حددت لرجل لوقف عليها . فتناولت خريطة لأوروبا الوسطى وتركتها تضع يدها على البلدان فأخذت تقرأ حتى ذكرت انجلترا وكيلوز وشامبيري

ولكنني كنت غبياً فلم أفهم شيئاً . وقد أحسست بحرارة تسري في جسدي ، ولعل الحب الشديد الذي شعرت به فجأة جعل على بصري غشاوة فأخذت أنظر في سكون إلى ذلك الجسد الرطب الممدد على ركبتي وصدري !

فقالت : هل فهمت شيئاً ؟ إن الرجل الذي تقتفي الخدمة السرية أثره في إحدى دول الوسط يحمل وثائق ثمينة جداً في حقيبة صفراء وهي تنبه رسولها لصفاته وتطمئنه ... ثم اعتدلت في جلستها وأخذت يدي في راحتيها ونظرت إليّ نظرات شاردة وقالت : كأنني أكتب في لوح مكتوب أنك أنت المقصود بهذه الرسالة ، وأن هذه الوثائق أمامك وملك يمينك ، وأنك لن تتكبد في الوصول إليها مشقة لأنها عندك وتحت يدك . ولكنني مجنونة أية علاقة بينك وبين الخدمة السرية في الدول ، في هذا الجو القاتم الملبد بغيوم الحرب ؟

وقبل أن أتمكن من القول لها : استمري في قراءة هذا اللوح قالت لي :

— إني أحبك ! إني أحبك ! إني أحبك !

وجذبتني إليها وأنا مستسلم لا أتحرك وعانقتني ثم دفعت نفسها إليّ في قوة وقالت : آه ان اللوح يختفي عن عيني شيئاً فشيئاً . إن حبك قد علمني قراءة الغيب ، وفي تلك الليلة على الرغم من اشتعالنا

بنار واحدة لم أستطع الدنو منها

وعند شروق شمس الغد، نهضت جوتى وقالت: إن نفسى تاقت لنزهة قصيرة فى إيفردون أو فرسوا، ولكن البحيرة لا توافقها فهى تفضل سكة الحديد، فرضيتُ اقتراحها . وإذ كنا على الأفريز حانت منى التفاتة نحو مستودع الصحف والكتب والفتاة الشقراء الباسمة ، فدنوت منها واشتريت حزمة من المطبوعات الطازجة التى تحمل عبق المداد ، وعطر الأشجار التى صنع الورق الغض من جذوعها وفروعها . فلما دفعت لها الثمن قالت: آه سيدى! لقد أوذيت لأجلك، ولكننى لم أبعك، فان الرجل الطويل الأسود الشعر الذى كان يقتفى أثرك منذ شهر عاد يتهمنى بتضليله ، ويسألنى إن كنت رأيتك تحمل حقيبة صفراء بيمينك. فقلت له: إن الحقيبة الصفراء كانت بيمينك أنت، ومارأيت معه شيئاً فلم يصدقنى، وزعم أنى تسترت عليك حين استبدلت حقيبته بحقيبتك ، وشكانى لرؤسائى ، ولكنه عجز عن تقديم الدليل على صحة زعمه ، وإنى أخاله ذا قيمة عالية ، لما رأيت من اهتمام الرؤساء بشأنه ، ولكنهم يسمونه دائماً موسيو إس S فهل هو سوفاج أو سيربان أو سراسان ؟ [1]

وكانت جوتى تسمع طرفاً من الحديث ، دون أن تشعر الفتاة بصحبتنا. فلما فرغت الشقراء من ثرثرتها المذبة قالت جوتى: ألا تزال مصمما على نزهة فرسوا ؟ أما أنا فلا ، لأننى شعرت بدوار مفاجىء ، ولابد لى من الرجوع إلى البيت لأعالج صداعى باستكمال النوم حتى الظهيرة أو بازدراد جرعة من البروميد المسكن

فقلت فى نفسى : هكذا النساء يعترضن ويقلقن راحتنا ثم يعدلن عن فكرهن فيظلمن الرجال ...

وكدت أغضب ، ولكننى كظمت غيظى ، لو لا أن ابتدرتنى بقولها : لن تندم على عودتنا بقدر ما كنت تندم لو أصررت على نزهتك ... فلم أملك نفسى وقلت لها :

— نزهتى أنا أم نزهتك أنت ؟ ما أقبح ماعليه بعض النساء من غباوة مرذولة . أما عندهن إحساس بما يلائم معقولية الرجل المتحضر من الجنس الأبيض ... أما إلى ذلك من سبيل ؟ لعلك تظنين أنى جننت بحبك جنوناً يحملنى على طاعتك فى السفر والإقامة

فابتسمت جوتى وقالت : لم أراك غاضباً غير هذه المرة ... ما ألطفك فى سخطك؟ أتعرف خرافة الأم التى قتلت الكلب الذى كان يحرس ولدها حين رأت خياشيمه ملوثة بالدماء

فنظرت إليها فى كدر شديد وقلت : إن ما أعرفه ولا أجده ، وأبحث عنه ولا أعثر به ، هو الحياة الهادئة التى لا يسمح الزمان بها

وكنا بلغنا الدار ، فلزمت جوتى فراشها مريضة أو متمارضة ؛ وعند ما أفاقت حوالى الظهر صرفت الخادم العجوز ومنحتها أجازة نصف يوم . ثم قالت لى إنها لم تتعود أن تتجرع أدوية من الصيادلة ، وخير لها أن تبحث فى الأدراج والصناديق والعلب القديمة ، وجلست بجوارى على السرير وأخذت تداعب شعرى بيدها فملت عليها وقبلتها ، ولكنها مالت عنى بسرعة وقالت :

— أتأذن لى أن ألتمس دواء فى إحدى حقائبك المهجورة

فقلت : أتحتاجين إلى سؤالى وإذن ؟ ماذا جرى ؟ وكيف انقلب المذر حقيقة ؟ فنهضت جوتى إلى غرفة نومى ثم عادت تحمل الحقيبة الصفراء التى

(١) أهو وحشى أم ثعبان أم بدوى وكلها على حرف S

لم أرها منذ وصولى وقد استغنيت عما تحتويه بما أعدته لى تلك الحميمة الحنون

ففتحتها ... ثم نظرت فيها وأطالت النظر ... ولم تمد لها يداً ...

فنظرت بدورى ... فلم أجد مباذل ولا أدوات حلاقة ولا مرآة ولا قنانى عطر . بل أوراقاً ودفاتر فى أشكال شتى ومصورات وخرائط وأشرطة فوتوغرافية وألواحاً زجاجية ورسوم مواقع وحصون وتصميمات مدافع وطائرات وغواصات ، وجداول إحصاء ورموز كيمائية وخرائط جوية ...

فقالت جوتى : هل هذه أدوات الزينة ، أم محتويات الحقيبة الصفراء التى لم تكن تفارق الرجل الطويل الأسود الشعر ، وقد وقعت فى يدك خطأ يوم وصولك مدينة جنيف ؟

فأشرقت الحقيقة فجأة على ذهنى وارتبطت حلقات الوقائع ببعضها البعض حتى صارت سلسلة متينة . لقد نقلت الأقدار تلك الوثائق بحقيبتها من يد صاحبها إلى يدى أثناء تغيير القطار فى دوسو دوسولو أو أمبريو . ولعله وضعها بجوار حقيبتى وغفل عنها مدفوعاً بسرعة النزول . وهكذا حلت لى الأقدار ما كنت عاجزاً عن حله إلا بشق النفس وتكبد الأذى ؛ وإذن صحت نبوءة جوتى ، إن الدهر لن يفرق بيننا . فنظرت إلى وجهها فوجدته قاتماً فقالت :

— عند ما سمعت حديث بائعة الصحف أيقنت أن الحقيبة الصفراء المهجورة هى حقيبة الرجل الذى وصف فى عمود الأسرار فى « ديلى ميل » فسارعت بالعود متمارضة خشية أن تسرق أو تختلس أثناء غيبتنا فى إيفردون أو فيرسواه . ولكن غيظك وغضبك وسخطك مما لا أتحمله . وقد قتلت الحب فى مهده وأطلقت لسانك بكلمات مزعجة ما كان لك أن تتسرع بالتلفظ بها كما تعلم ، ولكنك لم تتمالك نفسك . فهذا فراق بينى وبينك ...

وعبثاً حاولت مصالحتها والافضاء لها بسر مهنتى ومكانتى فى الخدمة المخصوصة ، ودفتر الحوالات الذى أملكه ، والمال الذى لا حد له ، والاجازة الطويلة التى نلتها ، وان الانتفاع بهذه النعم راجع إلى فطنتها وسرعة بديهتها ، وحسن الحظ الذى لازمنى منذ انتويت السفر إليها قبل أن أباشر عملى . وقد اطلعتها على جفر المراسلة وملاحن الحديث[1] وقانون المخاطبة السرية ، ووقفتها على أمور لو علم رؤسائى أنى أذعتها لم يكن يكفيهم قتلى بالرصاص عقاباً عليها ، ولكن قلب جوتي الذى كان يتفطر شوقاً إلىّ إن غبت عنها ساعة أمسى كالجلمود وقالت :

— لم يسؤنى شىء كما ساءنى طرد الشيخ المسن جيروم باودلسكى ، وهذا ثأره تقتص له الطبيعة منى ، لأننى أقصيته وحرمته المأوى فى كل أسبوع مرة مراعاة لكمال راحتك . والآن الوداع ياصاحبى

فنهضت وأنا أشعر بالندم يحز فى نفسى ويهيمن على إحساسى . وقلت : أهذا آخر ما تقولين ؟ إن كان حقاً ما نويت فاعلمى أننى أغادر جنيف دون أن أمس شيئاً من هذه الحقائب والوثائق . وسأترك لك المال والحوالات فلم يعد لى فى الحياة مطمع بعدك وأن الدنيا هينة عندى فى جنب رضاك . وإذ ذاك لاحت علائم الدهشة واضحة على جبينها . ثم تبسمت ابتسامة تمثلت فيها دلائل الحب والاخلاص اللذين كان ينطوى عليهما فؤادها وما شعرت به نحوى من عطف فأقبلت أداعبها وأسألها الصفح عما بدر منى ، فأجهشت فى البكاء ولم تتكلم حتى الصباح

محمد لطفى جمعة

(١) أى الشفرة والسر وهما معروفان

صلاح الدين

للقصصي الإيطالي بوكاتشو
بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

حينما تولى الامبراطور فريدريك الأول — إذا صدقنا كثيراً من المؤرخين — استعد المسيحيون لاجتياز البحر لفتح الأرض المقدسة . ولما بلغ الخبر السلطان صلاح الدين ، وكان أميراً مزداناً بأنواع الفضائل وملكا لبابل ، عزم على مشاهدة استعداد الأمراء المسيحيين ليتمكن من حسن الدفاع . فدبر أموره بمصر وتظاهر بالذهاب إلى الحج وسافر متخفياً بملابس التجار ، ولم يصطحب غير صديقين وثلاثة من الخدم . وبعد ما جاب عدة بلاد مسيحية توغل فى لومبارديا ليصل إلى جبال الألب . وعند ذهابه من ميلان إلى پافى صادف شاباً نبيلا يدعى توريل ديسترى قبيل المساء ، وهو من أهالى پافى . وكان وراءه عدد عظيم من الخدم والكلاب والطيور ليقضى بضعة أيام على ضفاف تيزان فى بيت يملكه فى تلك الجهة . فظن هذا الشاب أن هؤلاء ليسوا إلا أمراء أجنبيين يسيحون فى الأرض ، فعزم على مقابلتهم بكل احترام . وحانت لذلك الفرصة إذ انبرى أحد أتباع صلاح الدين ووجه هذا السؤال إلى خادم من خدام الشاب : ماذا بقى من المسافة إلى پافى ؟ وهل فى الامكان الوصول إليها قبل إقفال أبوابها ؟ فرد توريل موجهاً الكلام إلى صلاح الدين :

لا تستطيع ذلك مهما حاولت يا سيدى

— دلنا أين نمضى ليلتنا هذه لأننا غرباء ولا نعرف هذه البلاد

— بكل ارتياح وسرور . ولقد كنت عازماً أن أرسل فى هذه اللحظة أحد أتباعى إلى پافى لقضاء أمر وسيقودكم إلى مكان ترتاحون إلى الاقامة فيه

ثم أسر إلى أذكى خدمه بأن يقودهم إلى منزله عن طريق آخر بينما يسير هو فى أقرب الطرق . وبمجرد وصوله أعد عشاء فاخراً فى حديقته ونسق الموائد ثم وقف بالباب ينتظر ضيوفه . وفى هذه الأثناء كان الخادم يضلل الضيوف من طريق إلى طريق دون أن يشعروا . وفى النهاية دلف بهم إلى البيت . ولما شاهدهم سيده هرع إليهم قائلا : « مرحباً وأهلا وسهلا ! » ولذكاء صلاح الدين وشدة فطنته فهم الحيلة وقال له : « إذا كان فى الامكان أن يُشكر أحد لشرفه وكرمه وجدنا ما نشكوه منك لأنك أطلت طريقنا لتتمكن من حسن الضيافة ولطف المجاملة التى أسرتنا بها ولسنا لها أهلا . فأجاب الفارس الظريف وكان حكيما فصيح اللهجة : « إن ما قابلتك به من الاحترام وحسن الضيافة لقليل بجانب ما تستحقه أيها السيد الجليل إن لم يخدعنى ظاهرك . ولو كنت فى غير پافى لساء نزولك . فلا تأسف إذا طالت طريقك » وفى أثناء الحديث أقبل رجال توريل ليكونوا الاحتفاء بهم جميلا فخما واصطحبوا الأجانب إلى غرفهم التى أعدت لهم ، ثم تناولوا العشاء ودارت عليهم الرطبات وسامرهم

مضيفهم بالله الأسمار وأحبها

وكان صلاح الدين وصاحباه يجيدون اللاتينية فأعجبوا بفصاحة مضيفهم الذى لم يروا مثله فى آدابه وبلاغة قوله ورقة شمائله . وكانت لدى توريل أعظم فكرة عن ضيوفه . وأمسى مهموماً لأنه لم يتمكن من إعداد وليمة فخمة يدعو إليها البلاد ليزيد فى بهجة الضيافة ، ولكنه عزم على إصلاح ذلك فى الغد

ثم اصطحب ضيوفه إلى الحديقة وأرسل رسولا إلى زوجه وكانت نبيهة كريمة . وفى أثناء السمر سأل بكل تأدب ضيوفه عن صفتهم فأجاب صلاح الدين :

« نحن تجار من قبرص ، وسنسافر إلى باريس لقضاء أعمالنا » فأجاب توريل بصوت جهورى : حمداً لله الذى جعل بلادنا تنتج ظرفاء يشبهون تجار قبرص ! »

واستمر الحديث إلى أن جاء وقت العشاء وتركهم يأخذون مجالسهم على المائدة كما يريدون . ولم يكن العشاء فخما ولكنه كان جيداً جداً . وقد ساد عليهم الاخلاص والهناءة ولم يمكثوا طويلا على المائدة ، وفكر توريل فى تعب ضيوفهم من وعثاء السفر فقادهم إلى أيسر منهم وذهب هو إلى سريره

وقد قام الخادم الذى ذهب إلى بافى بما عهد به إليه خير قيام . وبمجرد ما سمعت امرأته الخبر أنبأت أصدقاء زوجها وجهزت وليمة فاخرة ودعت أعيان المدينة ووجهاءها واشترت مختلف الحرائر والوشى الذهبى والسجاجيد والفراء وجهزتها حسب إشارة زوجها

وفى الصباح ركب توريل جواده واصطحب الأجانب إلى مخاضة قريبة وسرهم رؤية طيور صيده حينما تحلق فى الجو . ثم سأله صلاح الدين أن يرسل معهم أحد أتباعه ليدلوهم على طريق بافى فأجابه : « سأكون دليلكم فى هذه المرة لأنى مضطر لقضاء أعمالى هناك » ثم تابعوا السير فوصلوها فى الساعة التاسعة ، وظن المسافرون أنهم سينزلون فى نزل عظيم ولكنهم دخلوا بيت توريل وشاهدوا نحو خمسين رجلا فى استقبالهم . وسار هذا الجمع أمامهم فقال صلاح الدين : « ما هذا الذى سألناك إياه . ولقد أكرمتنا البارحة أكثر من اللازم فنرجو منك أن تدعنا نتمم طريقنا

— إنى مدين للحظ الذى أرسلك إلىّ البارحة ، وهو الذى أضلك طريقك ؛ ولكنى أرجو منك أن تتكرم بقبول تناول الغداء معنا اليوم ؛ وإن هؤلاء الأصدقاء سيشرفوننا إن سمحت بالجلوس إلى مائدتنا . فاضطر صلاح الدين إلى القبول ؛ فنزلوا ودخلوا دار مضيفهم فوجدوها منسقة بأبهى الأثاث وأفخر الرياش ؛ ثم غسلوا أيديهم وجلسوا إلى المائدة وقد جمعت أطيب الطعام وأفخر الصحاف . ولو كان الضيف نفس الأمبراطور لما استطاعوا أن يهيئوا له أفخر من هذه الألوان ولا أبهج من ذاك التنسيق . ومع أن صلاح الدين وصديقيه قد اعتادوا البذخ ولكنهم دهشوا من هذا الاستعداد لأنهم كانوا يظنون أن مضيفهم ليس إلا من أفراد الأهالى العاديين لا سيداً عظيما . وبعد تناول الغداء وتناول الحديث ذهب النبلاء الايطاليون ليستريحوا من عناء القيظ اللافح ، ولبث توريل وحده مع ضيوفه ؛ ثم دخل معهم إلى غرفة خاصة حتى لا يخفى عنهم أعز وأثمن ماعنده ؛ ونادى زوجه المحبوبة الفاضلة فأقبلت ترفل فى أفخر الأثواب مصحوبة بطفليها الجميلين الرشيقين وسلمت على الأجانب بكل لطف فقاموا وردوا التحية بأحسن منها

وأجلسوها وسطهم وطفقوا يلاطفون الأطفال . وبعد تبادل الحديث سألتهم بكل تأدب عن صفتهم وعن الغرض الذى رحلوا من أجله فأجابوا بنفس الجواب الذى قالوه لزوجها . ثم قالت : « حبذا لو تفضلتم بقبول هذه الهدايا الصغيرة لأن النساء بطبيعتهن ضعيفات الارادة ، فذلك يعطين الأشياء الصغيرة ؛ ولكنى قانعة بأنكم تقدرون حسن نيتى قبل كل شيء دون أن تعيروا الهدايا أقل اهتمام » وقد أحضرت لهم أفخر الثياب مما يلبسه الأمراء وقالت لهم : إن زوجى قد حصل اليوم على ثوب مماثل وأنتم اليوم بعيدون عن نسائكم ورحلتكم بعيدة والتجار يميلون عادة إلى النظافة . ورأي النبلاء أن توريل لم يفته شيء فأجاب أحد الضيوف : « إن هذه الحلل ثمينة جداً ولا يمكن قبولها بسهولة إذا كان فى استطاعتنا أن نرفضها أمام هذه المجاملة الحسنة واللطف الزائد »

وكان توريل قد تركهم منذ هنيهة ، ثم أقبل فودعتهم زوجه وقدمت كثيراً من الهدايا للخدم . ورجا منهم زوجها أن يقضوا بقية اليوم عنده . وبعد أن أخذوا قسطهم من الراحة ركبوا الجياد للتريض فى المدينة وعند عودتهم جهزوا لهم عشاء فخما ثم طفقوا يتسامرون إلى أن حان وقت النوم فذهبوا إلى مضاجعهم

نهضوا فى الصباح إلى جيادهم ليسافروا فوجدوا مكانها خيلا قوية جميلة بعددهم حتى الخدم ، فدهش صلاح الدين وقال حينما عطف على أصحابه : « أقسم بالله إنه لا يوجد رجل كامل الفضائل حسن المجاملة بصير بالأمور مثل هذا الرجل . ولو كان ملوك النصرانية مثل هذا الفارس فى شمائله ومكارم أخلاقه لما استطاع ملك بابل (صلاح الدين) أن يثبت أمام الذين يستعدون لمهاجمته ولا أمام واحد منهم . وقد رأى أن لا فائدة من رفض الهدايا الجديدة فشكروا له حسن صنعه وسافروا

وعزم صلاح الدين إن انتصر فى حروبه أن يرد جميل توريل وكرمه الحاتمى ، وطفق يتحدث طويلا عنه وعن زوجه وسمره الممتع وشريف سجاياه

وبعد أن طاف بجميع جهات أوربا الغربية رجع إلى الاسكندرية مزوداً بكل ما يلزمه من المعلومات وأنشأ يستعد للدفاع

وحينما حان الوقت لسفر المسيحيين وأضحى الاستعداد على قدم وساق في كل مكان صمم توريل على اللحاق بجيوش الصليبيين رغماً عن توسلات زوجه وعبراتها المنهمرة . وبعد ما جهز نفسه واستعد لركوب جواده قال لامرأته : « سأتبع يا عزيزتى الفرسان المسيحيين لسعادتى واطمئنان نفسى وأوصيك برعاية أملاكنا ومصالحنا . إننى معرض لكثير من الأخطار التى تحول دون عودتى ؛ وإنى أطلب منك منة واحدة وهى أن تنتظرينى مهما كان مصيرى عاماً وشهراً ويوماً من ابتداء سفرى »

— كيف أحتمل يا صديقى الآلام التى يسببها لى سفرك ؟ وإن لم توافنى منيتى فأيقن أنى سأحافظ على عهدى وعلى ذكرى توريل فى حياتك ومماتك »

— إننى لا أشك فى إخلاصك ووفائك ؛ ولكنك مازلت فتية جميلة نبيلة متحلية بجميع الفضائل . وقد عرف فيك الناس جميع تلك الشمائل ومن المحتمل أنه بمجرد إشاعة موتى يتقاطر إلى إخوتك وأهلك كثير من النبلاء لخطبتك ولا تستطيعين مقاومة أوامرهم ولهذا السبب طلبت منك الانتظار عاماً وشهراً ويوماً »

— سأعمل كل ما أستطيعه لتنفيذ وصيتك . وإن أرغمت على الزواج فلا يستطيع أحد أن يمنعني من العمل بوصيتك . وإني أسأل الله أن يبقيك لنا ذخراً وسنداً » ثم بكى الزوجان ونزعت امرأته خاتماً من أصبعها وقدمته لزوجها قائلة : « إن مت قبل رؤيتك فليذكرك بي هذا الخاتم » ثم ودعهم توريل وسافر . ولما وصل إلى جنده ركب البحر مع فرقته . ولما بلغ عكا التحق بجيوش المسيحيين . ولقد كان نصيب أغلب هذه الجيوش الموت ونصيب الباقي الأسر وقادوهم إلى عدة مدن . وكان توريل في من لم ينجوا من حسن حظ صلاح الدين أو من مهارته . ولا يعرف السبب الذي يعزى إليه هذا النصر العام والنجاح السريع . ولقد اقتادوا توريل إلى سجن الاسكندرية ، وهناك لم يكن معروفاً لأحد ، وخشي أن يعرف . ولقد فكر في الطيور لأنه يحسن تربيتها وتدريبها

لم يعرف توريل هذا الأمير ولم يفكر إلا في وطنه الذي حن إليه ، وقد هم أن يهرب مراراً ولكنه لم يتمكن من تنفيذ فكرته

وفي هذه الأثناء حضر بعض السفراء الجنويين وافتدوا عدداً من مواطنيهم . وحينما تهيأوا للسفر أعطاهم خطاباً لامرأته يرجوها فيه أن تنتظره ورجا من الذي عهد إليه الخطاب أن يسلمه إلى عمه الأبيه سان بيير ليوصله بنفسه إلى عقيلته

وفي ذات يوم كان صلاح الدين يتحدث مع توريل في شئون طيور صيده فبدرت منه ابتسامة مصحوبة باشارة كان لاحظها صلاح الدين عند مضيفه في يافي ، فحملق فيه فعاودته الذكرى أنه رأى هذا الوجه يوماً ما . فقال له : « من أي البلاد أنت ؟ »

فقال له : « إني ياسيدي من لومبارديا من مدينة تسمى يافي » وقد رجح هذا الجواب ظن صلاح الدين ؛ وقال في نفسه : « لقد أتاح لي الله الفرصة لأعرفه بما تركه لطفه من الأثر في نفسي » وفي الحال أمر بتغيير جميع ملابسه في غرفة كبيرة وصحبه إليها قائلا : « انظر جيداً جميع هذه الملابس علك تعرف منها شيئاً » فسرح الايطالي طرفه في جميع الملابس فلمح الحلل التي منحتها فيما مضى زوجه إلى ضيوفه وقال : « إنني ياسيدي رأيت حلتين تشبهان ما أعطيته لثلاثة من التجار استضافوني » فلم يتمالك صلاح الدين من كبح نفسه وعانقه بحنو قائلا : « أنت مستر توريل ديستري وأنا أحد التجار الذين منحتهم امرأتك هذه الحلل . ولقد حان الوقت لأريك بضائعي كما قلت لك عند سفري »

شعر توريل في اللحظة بالفرح والخجل لمجيء مثل هذا السلطان في ضيافته والخجل لاستقباله استقبالاً عده غير لائق بمركزه

ثم قال له صلاح الدين بحماسة : « أيها الصديق العزيز ، أما وقد أرسلك الله إلينا فتيقن أنك أنت وحدك السيد هنا لا أنا » وبعد ملاطفته ألبسه أفخر الحلل الملوكية واصطحبه أمام كبار رؤساء بلاطه وقدمه إليهم أحسن تقدمة ، ثم أثنى عليه أطيب أنواع الثناء وقال لهم : احترموه كما تحترمونني . فأطاع الكل إشارته ولا سيما الذين اصطحبوه في ضيافة توريل

إن سرعة انتقال توريل من الأسر إلى المجد ألهته عن أمور لومبارديا وظن أن عمه استلم رسائله

وصادف في اليوم الذي أسر فيه صلاح الدين آلافاً من المسيحيين أن مات منهم أحد النبلاء المسمى

« مسير توريل دو دينى وكان غير معروف فى الجيش فظن الناس أنه توريل ديسترى لتشابه الاسم الأول وتأكد ظنهم بأمر توريل فأذاع بعض الايطاليين نعيه فى بلادهم وأكدوا أنهم شيعوا جنازته

وكان لخبر موته الكاذب وقع سيئ عند زوجه وأقاربه وأصدقائه . وظلت زوجه تذرف العبرات الحارة أياماً طوالاً ، وبعد انقضاء عدة أشهر خطبها للزواج كثير من أعيان بلدها وألح عليها أهلها بالقبول فرفضت مدة طويلة وقالت لهم : لابد من احترام المدة التى اشترطها زوجها قبل سفره

وبينما هذه الحوادث تمر فى باڤى كان توريل يفكر فى امرأته وفى قرب انتهاء المدة التى اتفق عليها مع زوجه ففقد صوابه من الغيظ والحنق ، وأضناه الحزن حتى لزم فراشه وتمنى الموت ليتخلص من آلامه

وحينما سمع بمرضه صلاح الدين وكان يحبه حباً جماً أسرع لعيادته وتوسل إليه أن يخبره عن سبب مرضه ، فاعترف له بالحقيقة ، فلامه لتأخره فى الاعتراف وطمأنه قائلاً : « تأكد أنك ستكون فى باڤى فى الميعاد المحدد ، فرجا من الأمير أن يعجل التنفيذ . دعا صلاح الدين ساحراً بارعاً جرب من قبل مهارته وكلفه بنقل توريل وهو نائم على سريره فى سواد ليلة واحدة إلى باڤى . فأجابه الساحر بأنه يلزم أن يعطيه أولاً شيئاً منوماً ثم يباشر عمله . وفى الغد أراد السلطان أن يسفر ضيفه فوضع فى إحدى الغرف سريراً فخماً مزداناً بالمخمل المزركش بأسلاك الذهب واللآلئ الكبيرة والماس الثمين ، وكان هذا السرير آية فى جمال الصنع والفخامة ، وأمر بإلباس توريل حلة فخمة وعمامة من أفخر العمائم . ثم ذهب صلاح الدين مع كثير من الأمراء إلى الجناح الذى أقام فيه ضيفه وقال له والدمع يترقرق من عينيه : « أيها الصديق العزيز ، قد اقتربت ساعة فراقنا ولا أستطيع أن أصحبك أو أرسل فى صحبتك أحداً لطول السفر . ورجائى ألا تنسانى وأن تزورنى مرة ثانية حينما تنتظم أمورك ؛ وأملى أن تستمر المكاتبة بيننا » فخنقت توريل العبرات وقال بعض كلمات متقطعة من تأثره : « إننى لا أنسى معروفك وفضلك وشمائلك النادرة . ثم عانقه صلاح الدين مرات ثم ودعه باقى الأمراء وصحبوه إلى الغرفة المعدة له

ثم استعد الساحر لعمله وأقبل طبيب وبيده شراب قائلاً لتوريل : خذ هذا لو شربه ليقويه . ثم شربه فنام بعد قليل . ثم حمل إلى السرير المعد له وأضجعوه ووضع صلاح الدين بجانبه تاجاً فخماً لزوجه ووضع بيده خاتماً ثميناً بفص نادر ، وقلده سيفاً مرصعاً بأجمل الأحجار الكريمة وصندوقين صغيرين من الذهب مملوءين بأندر الحلى التى لا يسع المقام وصفها ؛ ثم عانقه مرة ثانية وقال للساحر : هيا إلى العمل . فغاب السرير فى الحال عن عيون الحاضرين ، وبعد لحظة كان توريل فى كنيسة سان بيير فى باڤى

دقت النواقيس مؤذنة بطلوع النهار وكان توريل مافتئ نائماً . ولما دخل الكاهن وبيده مصباحه لمح فجأة هذا السرير الفخم الذى يأخذ الأبصار ، فارتعدت فرائصه وأسرع يعدو هارباً وذهب إلى القس والرهبان وقص عليهم الخبر فقالوا له : إنها أوهام استحوذت عليك ، ثم ذهبوا جميعاً وأوقدوا كثيراً من الشموع فرأوا السرير وعليه رجل نائم وطفقوا يختبرون هذه الجواهر من بعيد دون الاقتراب منها

ولبسها . ثم استيقظ توريل وتنهد تنهداً طويلاً فذعر القسس والرهبان وركنوا إلى الفرار . ثم فتح توريل عينيه فوجد نفسه في المكان الذي رجا صلاح الدين أن يرسله إليه ، ولمح بجانبه من صنوف الجواهر والحلى والتحف ما أكد له سمو أخلاق صلاح الدين وكرمه الحاتمى . وقد لمح القسس وهم يولون الأدبار ذعراً منه فنادى رئيسهم باسمه قائلاً : أنا توريل ابن أخيك ، فزاد ارتعاد الرئيس لأنه كان يظنه ميتاً ، ثم رسم علامة الصليب واقترب من السرير . فقال له توريل : « م تخاف يا أبتاه ؟ إننى حى وأتيت من وراء البحار » فاطمأن عمه ورآه لابساً حلة عربية فخمة وعرفه جيداً رغماً من لحيته التى أرسلها ثم قال له : « أهلاً ومهلاً يا بنى ومرحباً ، لقد ذعرنا فى بادئ الأمر لأنه لا يوجد أحد فى جميع المدينة لا يعرف خبر موتك . وقد هدد زوجك أقاربها فاضطرت للاذعان بالزواج وستكمل اليوم وقد تم الاستعداد للحفلة والعرس »

فأمر توريل للرئيس وجميع الكهنة ألا يخبروا أحداً بعودته ، ثم وضع جواهره وتحفه فى مكان أمين وأخبر عمه بقصته من أولها إلى آخرها ، ثم قال له : إننى أحب أن أذهب إلى العرس لأختبر حالة زوجى وهيأتها . فأرسل إلى الخطيب يستأذنه فى الحضور مع أحد أصدقائه فقبل بكل ارتياح . فذهب مع عمه بحلته العربية فاتجهت إليه الأنظار ولكن لم يعرفه أحد . ولما سئل رئيس الكنيسة من هذا ؟ قال : سفير صلاح الدين لدى ملك فرنسا ، ثم أجلسوه أمام زوجه بالمصادفة فتفرس فيها فوجدها عابسة مهمومة ، وكانت تطيل فيه النظار دون أن تهتدى إلى شىء بسبب حلته العربية وذيوع وفاته التى كان لا يشك فيها أحد

ثم فكر توريل أنه قد حان الوقت لاختبار زوجه إن كانت محافظة على ذكراه ، فوضع فى أصبعه الخاتم الذى قدمته له عند سفره كتذكار منها ، ثم دعا الخادم الذى خدمه وقال له : « إذهب وقل للعروس عن لسانى بأنه قد جرت العادة فى بلادنا أن الأجنبى إن حضر عرساً فإن العروس لتبرهن له على إكرام وفادته وحسن رعايته تقدم إليه كأساً مترعة من النبيذ فيشرب منه ما يشتهى ثم يغطيه ويرده إلى العروس فتشرب المؤر . ولتبرهن له على عطفها عليه أمرت أن تقدم إليه كأس كبيرة من النبيذ وكان توريل قد وضع الخاتم فى فمه ثم شرب الكأس كلها وألقى من فمه الخاتم فى الكأس دون أن يشعر به أحد وغطاها وردها إليها ، فكشفت الكأس ولمحت فيه الخاتم فعرفته ثم حدقت النظر فى هذا الغريب وصرخت صرخة دوى لها المكان وقلبت المائدة التى كانت أمامها وانطلقت كالسهم وارتمت فى أحضان النبيل قائلة : « هذا هو فى الحقيقة سيدى وزوجى وعزيزى توريل » ثم عانقته عناقاً عنيفاً ولم تحسب حساباً للحاضرين . ثم قص كل منهما حديثه وأخباره من يوم سفره للآن وذهب الزوجان إلى منزلهما وتركا العروس وشواره وهو يقلب كفيه من الحسرة ، وهرع جميع من فى العرس إلى بيت توريل بمظاهر الفرح والبشر ، وأقبل الأصدقاء والخلان يهنئونه بالمودة وسط احتفال عظيم وموائد نصبت عليها كل ما تشتهى الأنفس وتلذ العيون ؛ ثم أعطى توريل جانباً من التحف لمزاحمه عوضاً عن نفقات العرس وجانباً آخر لعمه رئيس الكنيسة وعاش مع زوجه فى هناءة وسعادة أعواماً طوالا

محمد كامل حجاج

من القصص العربي

المرأة المدبرة

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

كانوا جماعة من أصحاب الجمع والمنع ، ينتحلون الاقتصاد و الذفقة ، والتنمية للمال، والتدبير للزمن. وقد صار هذا المذهب عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب ، وكالحلف الذى يدعو إلى التناصر . وكان من شأنهم أن يجتمعوا أصيل كل يوم فى مسجد البصرة فهو مجمعهم وناديهم ، ينحون منه ناحية نائية ، ثم يجرون فى شعاب الحديث ، ولا حديث لهم إلا ما يتصل بمذهبهم ، ويلائم نحلتهم من أخبار أهل التدبير والاقتصاد ، ونوادر أهل التنمية والإمساك المال ، وهم فى ذلك كله إنما يلتمسون الفائدة لشأنهم ، والصلاح لحالهم . فشعارهم فى ذلك قول الأول : « مذاكرة الرجال تلقح الألباب !! »

قال الراوى : ولقد رأيتهم فى يوم وقد جلسوا مجلسهم ، والتفوا حلقة كعادتهم ، فما كاد يقر قرارهم ويطمئن بهم المكان حتى اندفع شيخ منهم يقول بصوت متهدج ونبرة مستلينة ولهجة آسفة : ما شأنكم اليوم يا قوم ؟ كأنكم ما شعرتم بموت «مريم الصناع» ، وقد كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبة إصلاح ، ولها فى التدبير شأن أي شأن

قال القوم : وما عندك من حديث هذه المرأة عليها رحمة الله ؟ !

قال: حديثها طويل ، ونوادرها كثيرة ، ولكن أخبركم بواحدة وأحسب فيها الكفاية ، فقد زوجت ابنتها وهى بنت اثنتى عشرة ، فحلتها الذهب والفضة ، وكستها المروى والوشى ، والقز والخز وعلقت المعصفر ودقت الطيب ، وغلمت أمرها فى عين الختن ، ورفعت من قدرها عند الأحماء . فقال لها زوجها : أنى لك هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عند الله . قال : دعى عنك الجلة وهاتى التفسير . والله ما كنت ذات مال قديماً ، ولا ورثته حديثاً ، وما أنت بخائنة فى نفسك ، ولا فى مال بعلك ، إلا أن تكونى قد وقعت على كنز . وكيف دار الأمر فقد أسقطت عنى مؤونة ، وكفيتنى هذه النائبة . قالت : إعلم أنى منذ يوم ولدتها إلى أن زوجتها كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة ؛ وكنا كما قد علمت نخبز فى كل يوم مرة ، فاذا اجتمع من ذلك مكوك بعته !! قال زوجها : ثبت الله رأيك وأرشدك . ولقد أسعد الله من كنت له سكناً ، وبارك لمن جعلت له إلفاً ، ولهذا وشبهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من الذود إلى الذود إبل » وإنى على عرفك الصالح وعلى مذهبك المحمود ، وما فرحى بهذا منك بأشد من فرحى بما يثبت الله فى عقبى من هذه الطريقة المرضية !!

قال شيخ آخر يقرون له بالرياسة ، ويقدرون فيه الكياسة : حقاً يا إخوان ، إن موت هذه المرأة المدبرة النافعة فاجعة فاقرة ، وخسارة لا تعوض ، وما أحسب زوجها إلا باخعا نفسه على أثرها حزناً وحسرة . ومن فيكم ينكر أن « المرأة المدبرة » هى لزوجها كل ما يطلب فى هذه الحياة من صلاح الحال ، واستقامة الدنيا ؟ وإن لى شأناً مع زوجتى فى ذلك أحب أن أنفعكم به ؛ فقد اشتكيت أياماً صدرى من سعال كان أصابنى ، فأشار على قوم بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز

وأشباه ذلك ، فاستثقلت المؤونة ، وكرهت الكافة ، ورجوت العافية . فبينا أنا أدافع الأيام إذ قال لى بعض الموفقين : عليك بماء النخالة فاحسه حاراً . فحسوته ، فاذا هو طيب جداً ، وإذا هو يعصم ، فما جمت ، ولا اشتهيت الطعام في ذلك اليوم إلى الظهر . ثم ما فرغت من غدائى وغسل يدى حتى قاربت العصر ؛ فلما قرب وقت غدائى من وقت عشائى طوبت العشاء . وعرفت باباً من أبواب القصد ، فقلت للعجوز لم لا تطحنين لعيالنا فى كل غداة نخالة ، فان ماءها جلاء للصدر ، وقوتها غذاء وعصمة ، ثم تجففين النخالة بعد ، فتعود كما كانت ، فتبيعين الجميع إذن بمثل الثمن الأول ، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين ! قالت : أرجو أن يكون الله قد جمع لنا بهذا السمال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة التى فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك؛ وماأشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق!

قال القوم : صدقت ! فإن مثل هذا لا يكتسب بالرأى ولا يكون إلا سماويًا !

فأقبل شيخ من نهاية الحلقة يقول: حسبكم ياقوم حسبكم ، فلم أر فى وضع الأمور مواضعها ، وفى توفيتها غاية حقوقها « كمعاذة العنبرية » ، فانها المرأة المدبرة بحق

قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟

قال : أهدى إليها العام ابن عم لها أضحية فرأيتها كئيبة حزينة ، مفكرة مطرقة ، فقلت لها : مالك يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة ، وليس لى قيم ، ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى ، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئاً لامنفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لامحالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر إلى تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر فى جذع من جذوع السقف ، فيعلق عليه كل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك ! وأما المصران فإنه لأوتار المندفة وبنا إلى ذلك أعظم حاجة ! وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرف ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فلم ير الناس وقوداً قط أصفى ولا أحسن لهباً منه ، وإذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر لقلة ما يخالطها من الدخان ! ! وأما الأهاب والجلد نفسه فجراب ، وللصوف وجوه لا تدفع ! وأما الفرث والبعر فحطب إذا جفف عجيب ! ثم قالت : بقى الآن علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه ، وإن له مواضع يجوز ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كيّة فى قلبى ، وقذىً فى عينى ، وهمًّا لا يزال يعاودنى!

فانطلق بى الفكر فى ارتياد الحيلة ، ولكنى لم ألبث أن رأيتها قد تطلقت وتبسمت ، فقلت : ينبغى أن يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم ؟ !

قالت : أجل ! ذكرت أن عندى قدوراً شامية جدداً ، وقد زعموا أنه ليس شىء أدبغ ولا أزيد فى قوتها ولا أصلح لحالها من التلطيخ بالدم الحار الدسم . وقد استرحت الآن إذ وقع كل شىء موقعه ! ثم لقيتها بعد ستة أشهر كاملة فقلت لها : كيف كان قديد تلك الشاة ؟ قالت : بأبى أنت ! لم يجىء وقت القديد بعد ! لنا فى الشحم والألية والجنوب والعظم وغير ذلك معاش ، ولكل شىء ياصاحبي إبان

قال رئيس القوم : حقاً حقاً ! لا يعلم الواحد منا أنه من المسرفين ، حتى يسمع أخبار الصالحين !

محمد فهمى عبد اللطيف

حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل التاسع عشر

وزير انكليزى يزور السفير

قضينا معظم الليلة فى لندن بغير نوم لأننا كنا ننظر إلى كل شىء حولنا ونحاول أن نفهمه

وكان فى غرفة نومي ستائر من قماش مماثل للأحزمة ولكنه أرق منها . وكانت أغطيتنا ثقيلة جدًا لم نعتد مثلها فى بلادنا ، وقد تعبنا فى معرفة مواعيد الصلاة لأن الساعات عندهم لا تدار على الحساب العربى إذ الشمس لا تؤثر فى جوهم مثل تأثيرها فى جونا ، فقد تكون الشمس مشرقة منذ ساعة ولكن لون الليل لم يتغير . وقد يكون باقيًا ساعة على الغروب ولكن الأصيل فى لون الليل . وليس هناك مؤذنون ولا مساجد . ولاشك أن تقسيم النهار والليل عندهم ليس كما هو عندنا فان ليلهم طويل جدًا ولا تهدأ الأصوات فى أية ساعة من ساعات الليل . وكانت الأجراس تدق بين حين وآخر . وكنا نحسبها أذانًا أفرنكيًا فقط ، ولكننا وجدنا الأمر على خلاف ذلك لأنه يستحيل أن تكون الصلوات فى دينهم بهذه الكثرة

ولما استيقظنا فى الصباح قال لنا السفير إنه رأى منامًا وقصه علينا ففسره محمد بك تفسيرًا أرضاه . وأزال الهم عن نفسه . وذلك المنام هو أنه رأى ميرزا شافعى رئيس الوزارة الفارسية مطروحًا على الأرض والجلادون يضربونه على قدميه . وقد فسر محمد بك هذا المنام بأنه دلالة على هلاك عدوه

وأرسل إلينا وزير الخارجية الإنكليزية مترجمًا آخر غير الذى بعث به معنا السفير الانكليزى فى فارس . على أن معرفة المترجم الثانى بلغتنا كانت معرفة صحيحة ، فهو فيها كأحسن المنشئين ؛ وقد قرأ كل كتبنا الشهيرة ، ويجرى على لسانه أبيات حافظ والسعدى كما تجرى آيات القرآن على لسان المسلمين

وكاد السفير يكون سعيداً برؤية مترجمه الجديد لولا أن محادثتهما دلت على جهل سفيرنا بشئوننا الخاصة وبلغتنا نحن وبتاريخنا بالقياس إلى معرفة المترجم ...

وأخبرنا ذلك المترجم بأن وزير الخارجية الإنكليزية ورئيس الوزارة سيزورانا ، فقلنا فى أنفسنا كيف يأتيان لزيارتنا دون اشتراط شروط فيما يتعلق باستقبالنا لهما وموعد هذه الزيارة ؟ إن هؤلاء الانكليز بلا ريب لا يحفظون كرامتهم ، فإن أحدنا لا يزور — وهو فى مثل هذا المركز — إنسانًا دون أن تسبق الزيارة مفاوضات طويلة . فعند ما وصل السفير الانكليزى إلى طهران أبى رئيس الوزارة أن يزوره إلا بشروط خاصة . وانتهى الأمر بينهما بعد المفاوضة على أن تكون الزيارة فى منزل رجل ثالث محايد . أما الوزراء هنا فإنهم يلقون بأنفسهم فى أفواهنا دون أن نتكلف فتح هذه الأفواه

لكننا قبل كل شيء فارسيون ومن الذى ينكر على الفارسى تفوقه !

وجاء الوزير الانكليزى وليس معه غير تابعين اثنين، وقد جلسا أمامه قبل أن يستأذناه، فقلنا ما أعظم الفرق بين وزرائنا وهؤلاء الوزراء ! إن الوزير عندنا رجل عظيم له روعة وصولة فهو لا يخرج من القصر إلا محاطاً بمئات من الخدم ولا يجرؤ موظف تابع له على الجلوس أمامه بغير إذنه ، ولا يحييه إلا بأن يقبل طرف ثوبه وهو جاث على ركبتيه ، وإذا جرؤ أناس على المشى أمامه ضربهم الفراشون حتى يتشقق لحمهم وصودرت أملاكهم وتخربت منازلهم . إن الوزير عندنا يقول للشمس اشرق فتشرق ، ويقول لها غيبى فتغيب

أما هذا الوزير الذى زارنا فإنه مسكين لاعظمة فى نفسه ولا شمم . وقد جاء فجلس فى أقرب مكان . ولكن نظرات عينيه كانت شديدة التأثير ، فلو أنه فى بلادنا لسميناه عين الدولة . وهو فصيح تتدفق الكلمات من فمه تدفق السيل ، فلو كان فى بلادنا لسميناه لسان الدولة . ولكنه مع فصاحته وتأثير عينيه لا يصلح مطلقاً للحكم لفقدان هيبته . وقد أكد لنا أنه لا يفرق فى المعاملة بين أحد الانكليز وبين أحد المنبوذين الهندوكيين ، ففهمنا من هذا التعبير أنه لا يفرق أيضاً بين الخطأ والصواب ولا بين الحق والباطل

طلب سفيرنا إلى وزير الخارجية الانكليزية أن يقدمه للشاه الانكليزى فى أقرب الأوقات لكى يقدم إليه خطاب الشاه الفارسى والهدايا المرسلة إليه وقال إنه ما كان يظن أن يتأخر كل هذه المدة دون أن يقدم للشاه مع أنه مندوب ملك الملوك شاه إيران

فأكد الوزير الانكليزى للسفير أن كل شيء سيكون وفق رغباته مع رعاية التقاليد الانكليزية . ولكن بما أن مقابلات ملك الانكليز لا تكون إلا فى أوقات محدودة فيحسن الصبر قليلاً حتى تمكن هذه المقابلة

دهش ميرزا فيروز من ذلك وقال : إن الشاه الفارسى مستعد للمقابلة كل يوم ، فهو يجلس كل صباح على عرشه فيقبل عليه العلماء والوزراء ورجال الدولة والأعيان وكبار الأجانب وكل من يشير عليهم المنجمون بأن الساعة ملائمة لمقابلة الشاه

قال الوزير الانكليزى : إنه يأسف لأن النجوم فى سماء انكلترا لا تستطيع تحديد الساعات لمقابلة الملك ، فإن هذا ليس من شأن النجوم بل من شأن كبير الأمناء

وأدهشنا الوزير أكثر من ذلك بقوله : إن مقابلة الملك لا تطول ، وقد لا يستغرق استقباله دقيقتين أو ثلاثاً ، وإنه لا تلقى أمامه خطب ولا يقال شيء إلا بعد عرضه على كبير الأمناء ووزير الخارجية بالنسبة للسفراء ، فامتعض السفير من ذلك ولكنه كتم امتعاضه

وبعد أن خرج من عندنا الوزير قال : « ما هذه المصائب التى وقعت على رأسى ؟ إننى افتضحت ما بين الرجال ، وسيبيع الشاه أبنائى إلى التركمان لو علم أننى سودت وجهه إلى هذا الحد ، وسيحرق قبر أبى وأمى » . ثم التفت إلينا وقال : « أشيروا علىّ ماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ لقد اسود وجهى . وشاهنا مستبد وهو لا يبالى برؤوس الرجال إلا كما يبالى الجزار برؤوس الغنم »

فقلت : « الحق فى جانبك يا جناب السفير ،

ولكننا فارسيون مسلمون، فاذا حلت بنا نقمة فاذا نفعل ؟ لا شيء ! ويجب ألاَّ نلوم أحداً فهذا هو القضاء والقدر . وإن شاهنا مستبد بغير جدال ، ولكن هل هو مع استبداده يستطيع أن يُنزل بنا ما لم يكتبه الله علينا في اللوح المحفوظ ؟ »

قال محمد بك : « لقد أصاب حاجي بابا ياجناب السفير فان القدر لا مناص منه . إننا نأكل ونشرب ونحيا ونموت بقَدَر سابق لا شأن لاختيارنا وأعمالنا فيه . وإذا كان مقدراً علينا ألاَّ نرى الشاه الانكليزي إلا بعد بضعة أيام فاذا في استطاعتنا غير الصبر ؟ »

فقال السفير : « وإذا كان في هذا التقدير أن تقطع رأسي فماذا إذن ؟ »

فقال محمد بك بهدوء : « لايكون شيء ! لتقطع رأسك إذن »

قال السفير : « ما شاء الله ! ألا أحاول حفظ رأسي على الأقل ! قل كلاماً آخر وإلا فاني أقسم بذقن الشاه أن أجعل رأسك في مكان رجليك »

ولما رأينا حالته وصلت إلى هذا الحد تركناه لأننا نعلم ماذا يصدر عنه إذا انفجرت في صدره مراجل الغضب

الفصل العشرون

رئيس الوزارة الانكليزية

كانت زيارة وزير الخارجية قصيرة جداً ولم تكن منتظرة ، ولذلك لم نستطع القيام بواجب ضيافته . ولو أنهم أهملوا هذا الواجب فلم نقدم له غير القهوة الحلوة علامة على حسن الشعور والمودة بين البلدين ، ثم القهوة المرة علامة على انتهاء الجفوة التي قد تقع أحياناً بين الملوك . ونحن لا نعرف هل فهم الوزير ذلك أم لم يفهمه . ولكنه على كل حال لم يراع اللياقة، فانه لم يشرب إلا قطرة من الفنجان الحلو ثم رده ، فلما تقدم إليه الفنجان المر عافه وصار شكل وجهه مضحكا

لكننا علمنا بمجيء رئيس الوزارة قبل الزيارة بوقت كاف ،ولذلك استعددنا استعداداً كافياً، فصنع لنا حسن الطباخ أصنافاً متعددة من البقلاوة وأصنافاً أخرى من الحلوى فيها اللحم والخضار مصنوعين بالعسل والدقيق إشارة لامتزاج جميع المصالح بين فارس وبين بريطانيا، وأعدَّ كذلك عدة أنواع من الشراب الذي امتازت به فارس

وكانت بعض زجاجات الشراب قد كسرت في طريق السفر فأفرغ الطباخ مابها في أوان من الصاج بعضها أبيض اللون والبعض ذو ألوان أخرى . وقد وجدنا هذه الأواني بأماكن متعددة من المنازل الانكليزية التي نزلنا فيها . فلما رأى المترجم هذه الأواني وفيها الشراب أغرق في الضحك . ولما أخبرنا عن نوعها وما تستعمل له سترنا وجه الخجل بنقاب الجهل وحمدنا الله على أننا لم نشرب منها ولم نعرضها أمام رئيس الوزارة

أخيراً جاء رئيس الوزارة وهو في ثوب أسود كالذي يرتديه وزير الخارجية، وليس هناك أي فارق بين المرؤوس وبين رئيسه . وقد أخبرنا المترجم أن هذا الثوب هو الذي يرتدونه أمام شاههم . وإنهم يرتدونه الآن إجلالاً لسفيرنا

وكان شكل رئيس الوزارة كشكل الدراويش فهو متواضع رقيق . وانه ليدهشنا أن تدار شئون دولة كبيرة بيد درويش مثل هذا . ففي بلادنا يكون

الشاه (كما يقول المترجم) رئيس وزارة نفسه وهو يضطر لتأييد نفوذه إلى سفك كثير من الدم فى أول عهده بالحكم لكى يُهاب . وفى تركيا عند ما يعين الصدر الأعظم وهو رئيس الوزارة عندهم ؛ فانه يبدأ عهده باقامة المشانق وإعدام بعض أغنياء المسيحيين أو اليهود . ولكن رئيس وزارة الانكليز كما قال لنا بلسانه لم يقطع ولايد لص ، ولم يدق أذن بائع على باب حانوت

قدمنا إليه طعام الافطار وهو شهى كما وصفته ولكن العجيب الدهش أنه لم يوافقه فامتنع عن الأكل . وصار السفير يقدم له أحسن الأجزاء بأصابعه فيعتذر ؛ وقد ساءنا ذلك كل الاستياء لأنه من يصدق أن الذى يأكل لحم الخنزير لا تعجبه البقلاوة ؟

لكن هؤلاء الانكليز قوم مدهشون حقاً

زارنا بعد ذلك عدد من وزراء الانكليز على التتابع ؛ وقد ظهر لنا أنهم لا يعرفون مهمة الوزير ولا يعرفون أى شىء عن نظم الحكم ؛ فمن أمثلة ذلك أن لديهم وزيراً للغابات !

وقد ضحكنا عند ما سمعنا ذلك ضحكا شديداً لأن الغابات عندنا في فارس لاتساوى أجر خفير يحرسها فضلا عن أن يخصصوا لحراستها وزيراً ! ولكنهم فقراء ، والوقود عندهم عزيز جداً لشدة البرد فى بلادهم فى الشتاء . وهم مع فقرهم مسرفون ، فلو أراد الشاه أن يجعل حكومته وفق نظام الحكومة الانكليزية لعين وزيراً للصحارى ليحصى ما فيها من النخيل والهضاب والذئاب

ولما قلنا ذلك للمترجم قال إن الغابات فى انكلترا ضرورية لوجودها كضرورة الخيول والسيوف فى إيران : وقد صدقناه لما تذكرنا صناعة السفن فى انكلترا وماتستلزمه من الأخشاب ، مادامت سفنهم على الشكل الذى رأيناه

وفى جملة من زارنا من وزرائهم وزير البحرية ووزارته من أكبر الوزارات . وبالرغم من أن كثيراً من المدن الفارسية مثل بوشير وهرمز واستراباد ورشت وغيرها واقعة على البحر فاننا فى بلادنا لا نكاد نعرف ما هى السفن . وسيعتقد الفارسيون عند ما نعود إليهم ونحدثهم بما رأيناه أننا نتلو عليهم قصة من ألف ليلة وليلة

وزارنا موظفون آخرون لم نستطع فهم أعمال كل واحد منهم ، فقد قيل عن بعضهم إنه فى قصر الشاه ، وعن البعض أنه موظف بغير وظيفة ، وهو فضلا عن ذلك غير خاضع للحكومة بل رقيب عليها ، واسم هذا الصنف من الناس نواب البرلمان . ونحن نأمل فى المستقبل أن نعرف الفروق بين بعضهم والبعض الآخر فانهم فى نظرنا رجل مكرر ، فتحياتهم واحدة وأخلاقهم واحدة وثيابهم كذلك

ومن بين الذين زارونا رجل اهتممنا به اهتماماً كبيراً بالقياس لمكانته بمكانة نظيره فى فارس وهذا هو رئيس التشريفات

لكنه تبين لنا أن الفارق عظيم بين الرجلين ؛ فرئيس التشريفات فى فارس يجب أن يكون من أسرة القاجار وهى الأسرة المالكة المشهورة بجسامة لحاها . وقد أنعم الله على رئيس التشريفات الموجود الآن فى فارس بلحية تكاد تكون أكبر من لحية الشاه نفسه . وهو يرتدى لباساً خاصاً ويتكلم بلهجة خاصة . ومعرفته بأنواع التحيات وضروب التملق لا تعدلها معرفة . ولكن التشريفاتى الانكليزى

رجل لا مظهر له ولا وجاهة ، بل هو نحيف قصير

وقد كان السفير مدة زيارته ينتظر أن يقول شيئاً عن مقابلة ملك الانكليز ولكنه لم يقل شيئاً

وبعد ثلاثة أيام أخرى سمح لنا بتلك الزيارة فحمدنا الله على ذلك

الفصل الحادى والعشرون

ملك الانكليز

لما تحدد موعد الزيارة هيأنا الهدايا وحررنا قائمة بأنواعها وحمل السفير في جيبه خطاب الشاه وأمر بتهيئة الخيول فصبغنا بالحناء بطونها وذيولها ، ولكن محمد بك أجرى حساباً لتحويل التاريخ الأفرنكى إلى تاريخ عربى فتبين أن اليوم المحدد لهذه الزيارة « يوم أربعاء سفر » وهو يوم مشئوم عندنا نحن الفارسيين

ولما طلبنا إلى المترجم تغييره قال إن ذلك ليس فى الامكان ، فسأله السفير عن كيفية الاستقبال فقال إنه سيكون كاستقبال أى سفير آخر

قال السفير : « كيف ؟ » فقال المترجم : « ستذهب في عربتك إلى القصر الملكى فيقابلك رئيس التشريفات ووزير الخارجية فتقدم أوراق اعتمادك إلى الأخير أمام الملك

قال السفير : « وهل تظننى أكتفى بهذه المقابلة ؟ »

فقال المترجم : « لماذا لا تكتفى بها وهى التى يقابل بها جميع السفراء ؟ ثم ماذا تريد أن يكون غير ذلك ؟

قال السفير : «وماذا يهمنى من سائر السفراء ؟ إن فى العالم ملوكا كثيرين يمثلهم السفراء ويرضى هؤلاء بما يرضى به ملوكهم ، ولكننى أعرف الشاه الذى أمثله . إن شاهي يتربع على أقدم عروش العالم . وإذا كنت تريد أن تعرف من هم جدوده فإنى أعدهم لك من عهد نوح . وكيف تقرن أسماء ملوكهم باسم ملك فارس ؟ إننا إلى الآن لم نسمع بأسمائهم فعليكم أن تعرفوا فضلنا عليكم وتكفوا عن حماقتكم

قال المترجم : « ما هذه الكلمات ؟ هل تريد أن تغير عوائد البلاد ؟ وإذا اختار شاهكم أن يرسل لحيته فهل هذا يلزم ملكنا أن يفعل مثله ؟ أليس لكل أمة عوائدها ؟ »

فقال السفير : « لما جاء سفيركم إلى طهران قابلناه مقابلة لا أتنازل عن مثلها . لقد ذهب إليه عم الملك لاستقباله . وكانت الجنود على الصفين تؤدى له التحية ما بين مسكنه وبين القصر ، وألقيت قطع السكر تحت حوافر جواده ، وصدحت الموسيقى ورفعت الأعلام فى السوق وأمر الناس بأن يؤدوا له واجب الاحترام وسمح له بالوقوف أمام الشاه . وأنى لأقسم بدقن النبي عليه الصلاة والسلام لا أذهب إلى القصر الملكى إن لم أقابل هذه المقابلة . وكيف أذهب كما يذهب أى فرد من الأفراد مع أنى ممثل ملك الملوك . لا بل إنى سأعود هذا اليوم وأسأل الله أن يحفظني من الاهانة التى أردتم إلحاقها بي »

قال المترجم : « هذا مطلبك وقد يوافق عليه الملك . وسأبلغ أقوالك هذه لوزير الخارجية . ولكن الملك قد يرفض مقابلتك بتاتاً بسبب هذه الشروط »

هاج السفير ووقف وكاد الشرر يتطاير من عينيه وقال :

« أجبنى فى الحال هل أنا سفير أم لا ؟ »

قال المترجم بهدوء وإن كان الغضب بادياً عليه : « وهل ملكي ملك أم لا ؟ »

ثم سمعناه يقول بصوت خافت كلمة باللغة الانكليزية هي (دمن) وهذه كلمة كنت سمعتها في السفينة بين بعض البحارة والبعض كما سمعها السفير

قال السفير : « هل تقول أني دم ؟ أأنا دم ؟ أنت دم وأبوك دم ! لماذا أبقى عنا ليقال عني دم ؟ إنني رجل كبير الأهمية في بلادي ، وسأحرق قبر والديك لتعلم أنني لست دمن . إنني لم أقطع كل هذه الأرجاء لأسمع منك هذه الكلمة »

ففتح المترجم عينيه وفمه كالأبله ثم نظر إلى ساعته ، ووضع قبعته على رأسه ، وأدخل كفيه في قفازيه ، وأخذ عصاه وقال لنا : « أرجو ألا يقصر الله ظلكم » ثم ترك المنزل

ولما كنا معتادين رؤية السفير في أوقات غضبه فإننا لم نر فيما حدث شيئاً يخالف المعتاد لأنه كان يمثل دور المفاوض الماهر ، وهو يعلم أنه كلما زاد في التظاهر بالغضب كان أقرب إلى النجاح في المفاوضة حتى لا يشمت فيه خصمه ميرزا شافعي

وبعد خروج المترجم أطرينا السفير وقلنا : إن الانكليز في حاجة إلى من يلقنهم درساً في حقوق السفراء . وقلت له : « هم يظنون أنه ما دام لديهم عربات وليس لدينا شيء منها ، وما دام ملكهم ملكاً على الهند وليس لبلادنا بلاد أخرى تتبعها ، فهم أفضل منا . ويظنون أنهم بذلك قادرون على إكراهنا على مالا نريد . ولكنهم واهمون وسنعلمهم إن شاء الله بهمة سفيرنا كيف تكون العناية بنا

وقال محمد بك : « نعم . نعم ! الله أكبر إن سفيرنا سيعلم الدين يأكلون لحم الخنزير أن أكلهم حرام ! »

ثم صار كل واحد منا يقول ما يلهمه الله إياه من مدح السفير وذم الفرنجستان لتؤيد عظمة شاهنا في هذه البلاد

ولكن النهار انقضى ولم يعد المترجم ، وظننا الانكليز لم يقبلوا المفاوضة . وخشي فيروز خان أن يبلغوا الشاه بواسطة سفيرهم أنهم لا يقبلون زيارتنا للكهم ، فيشمت ميرزا شافعي ويفهم الشاه أننا أخفقنا لأننا أجهل من أبي جهل ، والتفت إلينا وقال : « ألم يكن ما قلته صواباً ؟ »

فأكدنا له أن ليس في الإمكان أحسن مما قال ، ولكنه صار يكرر هذا السؤال بين لحظة ، ولحظة ونحن نجيبه نفس الجواب

وأخيراً نفد صبره فأرسلني إلى منزل المترجم لأدعوه إلى تناول العشاء معه في هذه الليلة وكنت أعرف أن أحد هؤلاء الفرنجة إذا غضب فلا يزول غضبه إلا باتباع سياسة تدل على المهارة ... ولذلك كنت أمشي نحو داره مفكراً غير مقدر النجاح . ولكن العجيب أنني وجدته هادئاً كأي واحد بعد انتهاء المشاجرة أي كأنه لم يحدث شيء . وقد قبل الدعوة للعشاء مع السفير

وعند ما وصل كنت مع ميرزا فيروز وكانت مقابلتهما ودية كالعادة ، فوضع السفير يده على ظهر المترجم وقال : « ما شاء الله ! لقد برهنت على أنك رجل يا ميرزا . وهذا بلا ريب بعض ما استفدته من فارس . أما الذين لم يسافروا إليها من الفرنجستان فانهم يغضبون غضباً حقيقياً . إنك رجل يا ميرزا وقد عرفت كيف تبدأ بالغضب وكيف تنتهي منه .

ولقد قال حافظ : «إن الحب الصادق كغضب الأحمق يستمر فى الفليان بعد أن تزول أسبابه »

فأجاب المترجم : «أتمنى ألا ينتهى عهد صداقتنا، وقد أبلغت رغباتك إلى وزير الخارجية »

ظهر الاهتمام الفجائى على وجه السفير وقال : « ما ذا ؟ وما الذى قال ؟ » فقال المترجم : « إن الوزير قال إنه لا يرى صعوبة فى استقبالك كما تريد ، فعندنا جنود كثيرة لا بأس من اصطفاف بعضها على جانبى طريقك إلى القصر وعندنا عربات كثيرة وأعلام أكثر »

قال السفير : « إن هذا عجيب جداً ! إن هذا مدهش . إننى لا أفهم عقولكم يا معشر الانجليز فأنتم لا تثيرون المصاعب ولا تتركون مجالا للمفاوضات » فقال المترجم : « ذلك فى الأمور التافهة فقط »

قال السفير : « هل تعدون مقابلة السفراء أمراً تافهاً ؟ إنكم لم تفعلوا عشر ماتفعله فارس . فهل كرامة الملوك عندكم لا تعد شيئاً ؟ »

قال المترجم : « لقد كانت دول أوربا فى العصور الماضية تعنى بمثل هذه الأمور التافهة . وكان المظهر عندهم أجل من معناه

ولكنهم بعد ذلك رأوا أن فخامة الاستقبال ليست هى الدليل على الود فتركنا كثيراً مما تتمسكون به اليوم ، وقد كان أجدادنا أكثر تمسكا به منكم »

عند ذلك مشط السفير لحيته بأصابعه وفتل شاربيه وظهرت عليه علائم التفكير وشعر بأن مكانته عند الفرنجستان قلت ، مع أنه لم يكن يرجو بالتشبث إلا زيادتها

وأخيراً صاح « وهل أنتم : تظنون الآن أننا لسنا بجانبكم إلا ألواحاً من الخشب ؟ إننا أمة متمدنية من عصر أنو شروان ومنا جامشيد وجانكيز خان ونادر شاه ومحمد أغان خان وفتاح على خان

أجابه المترجم على أقواله جواباً أرضاه ثم جىء بالعشاء

الفصل الثانى والعشرون

ملك الانكليز

جاء اليوم الذى كنا نتمناه من عهد طويل ولكن لسوء حظى كنت مصاباً بغص فى القلب فى ذلك اليوم ، فكانت مرافقتى للسفير فى هذه الزيارة من المحال واستأذنته فى تركى بالمنزل . وأذن لى بغير صعوبة . وأدهشنى منه أنه مر بتخافى عن الحضور ودلنى ذلك على أنه لم يزل يعتبرنى جاسوساً عليه لرئيس الوزارة الفارسية

وكانت رؤية السفير فى ذلك اليوم من المناظر السارة فقد أتقن لبس ثيابه . والحق أن الفرنجة لا يفهمون كيف يكون إتقان اللباس فنحن نعرف ضروباً من لف الحزام ووضع الخنجر فيه بأشكال لائقة جميلة ، ولنا أساليب فى إمالة القلبق وإخراج خصل من الشعر من تحته ، وغير ذلك من التفنن فى الزى

وكان خنجر السفير وسيفه مرصعين بالجواهر وعلى قلبقه الريشة ، فقلنا عند رؤيته ما شاء الله ! »

ومشى السائس بعصاه الطويلة أمام جواد السفير ووراءه رجالنا تحيط بهم كوكبة من عساكر الانكليز وعلى الصفين جنود انكليزية كان ضباطها يضحكون، وقد كان بعض المصورين فى الطريق مستعدين لالتقاط هذه الصورة البديعة

وكان فى انتظار الموكب على باب القصر خان

انكليزى كبير يقال له سكرتير الملك

لم أستطع مرافقة الموكب كما تقدم فاكتفيت بأن أطل عليه من النافذة وهو ذاهب وسمعت وصف المقابلة من محمد بك . وقد أيقنت أن مقابلة الملوك فى تركيا وفي فارس أروع من مثلها فى هذا البلد . وقد لاحظت أن شكل جيادنا أجمل وآنق من شكل الجياد الانكليزية فان جياد إيران من جنس الجياد الروسية

انتظرت فى صبر نافد حتى رجع الموكب لأعرف تفصيل ما حدث فى القصر . فقال لى السفير عند عودته : « لقد فاتك منظر رهيب يا حاجى بابا . لقد فاتك رؤية الشاه الانكليزى ! إنه أطيب الملوك كما يقولون . ولذلك يتغانى شعبه فى محبته ، وقد أظهر لى من العطف ما ليس يظهره إلا الآباء لأبنائهم

ولقد اتضح لى أن العادات فى القصر تخالف أمثالها فى بلادنا . ولكن الملوك ملوك أينما كانوا وعلى أية حالة كانوا ، فالهيبة تتجلى على هذا الشاه الفرنجستانى كما تتجلى على ملك الملوك في طهران

وقال محمد بك : « ولكن الفرق الوحيد أنك تقف أمام ملك الانكليز مطمئناً . أما الواقف أمام الشاه فإنه يخشى على رقبته من السيف ، وعلى رجليه وظهره من العصا ، وعلى يديه من السلاسل . وقد رأينا الواقفين أمام ملك الانكليز كأنهم يقفون أمام زميل لهم

نظر السفير إليه وإلى سائر الأتباع الذين رافقوه فى الزيارة وقال : « وهل تكلمت أمامه كلاماً حسناً ؟ »

فصاحوا : « ماشاء الله ! إن أفلاطون ما كان ليقول أجمل من هذا » وقال السفير : « لقد عرفت كيف أمثل الشاه وأحافظ على كرامته

وقال محمد بك : « نعم فانك لما دخلت غرفته لم تخلع نعليك ولم تركع ، فذلك مالا يجب علينا لغير الشاه الفارسى »

فقال السفير : « نعم ، ويظهر أن أتباعه أنفسهم لا يفعلون ذلك فليس فى غرفته عرش ولا مكان لخلع النعال ولا مكان للسجود . وأنا وقفت على نفس البساط الذى كان الملك واقفاً عليه . وسلمته خطاب الشاه يداً بيد ، وقد وقف الملك على قدميه عندما دخلنا وكنا كلنا في مجلس واحد . والحق أقول أن هذا الملك ليعد طفلا بالقياس إلى ملكنا ؛ فليس فى غرفته فلقة ولا مقرعة ولا سيف ولا فى حاشيته جلاد . بل فى اعتقادى أننا إذا أهنا الملك لما حوكمنا فى حضرته ، بل كانوا يسلموننا إلى من يحاكمنا فيما بعد كما لو كنا نهين أى إنسان

قلت : « إن مكانة الملوك حقيرة فى هذه البلاد »

فقال تقى الدين : « نعم ويظهر أن عقوبة الضرب على القدمين غير مسموح بها هنا »

قال محمد بك : « نعم وقد أخبرنى المترجم الانكليزى بأنه وإن كان الذى يعتدى على ملك الانكليز لا يحاكم في حضرته ولكنه يعرض رقبته لحبل المشنقة »

فقال الرياخور : « إذن فالحال عندنا أحسن ألف مرة . إننى أفضل أن أضرب كل يوم لو شئتم الشاه على أن أعلق على المشنقة من أجل كلمة أقولها »

صاح السفير : « اسكت ياوغد ! لو سمعك الشاه لقطع لسانك ! أخرج من هنا »

وكان الرياخور أغا بك قد سمع كما سمعنا عند قدومنا إلى هذه البلاد ، أن الحرية مكفولة لكل إنسان وأنه لا يجوز القصاص إلا بوساطة القاضى ،

ولما طرده السفير أيقن أن العقوبة حالة به لا محالة ، فخرج مهرولاً إلى باب الطريق وهو يصيح : « أنا فى عرض ملك الانكليز »

وما كادت هذه الكلمة تبلغ آذان السفير حتى كاد يجن من الغضب وأمرنا باعتقاله وصاح : « أقسم بذقن النبي أنى أكلزك فى الحال : كلزوه ! هاتوا المقص واحلقوا لحيته وشاربيه »

فانطلقنا وراء أغا بك وجئنا به وطرحناه أرضاً ، وقام السفير وجلس على صـــدره وهو يقول : « سأكلزك فى الحال وحق ذقن النبي ورأس الشاه » ثم أخذ المقص وقص لحيته وشاربيه وأغا بك يصرخ ويستجير . وإذا كان أغا بك يستجير بملك الانكليز فانه فارسي قبل كل شيء ، وقص اللحية أكبر شتمة عندنا نحن الفارسيين ذوى الشوارب الطويلة واللحى العريضة المرسلة

ولما رأى أغا بك أن الانكليز ومليكهم لم ينقذوا لحيته وشاربيه أخذ يلعنهم هم واليوم الذى زار بلادهم فيه . وكان حزنه أبلغ حزن رأيته منذ رأيت حزيناً إلى اليوم

وفى صباح اليوم التالى ركب جواداً عدا به ولا نظنه يقف فى الطريق حتى يصل إلى طهران

الفصل الثالث والعشرون

ملوك الرمم

في اليوم الذي عاد فيه السفير من مقابلة الملك زارنا أناس مختلفو الدرجات . وكان غرضهم الأول من الزيارة ترك قطع صغيرة من الورق عليها أسماؤهم ومحل إقامتهم ، والانكليز يعتقدون أن ذلك تكريم لنا وقد عجبنا من ترك هذه الأوراق التى لا يرجى منها أي نفع

ولكن المترجم أكد لنا أن كل ورقة من هذه الأوراق تعد فى مقام زيارة . وقال : إنه إذا كانت الزيارات فى انكلترا مثلها فى فارس بمعنى أن الرجل يبعث برسول يعلن أنه قادم ثم يذهب بعد رجوع الرسول ويمكث عنـد المزور حتى يدخن ثلاثة غليونات ويشرب فنجانين من القهوة ، فان أعمار الانكليز ما كانت تتسع لزيارتهم وأعمالهم

ولما سأله السفير عن الطريقة التى يرد بها هذه الزيارات قال : إنه سيطبع له مثل هذه القصاصات ثم يذهب معه لتوزيعها على بيوت الناس

فضحك السفير ملء شدقيه . ولشد ما كان سروره عند ما رأى اسمه مطبوعاً باللغة الانكليزية وعلى الأوراق الصغيرة التى جاء بها المترجم

وزارنا أناس آخرون يحمل كل منهم دفتراً فيه توقيعات أناس مختلفين ، وطلب إلينا أن نوقع على دفتره وأن نعطيه (بقشيشاً) كالأتراك ، ونحن لا نعرف مهمة هذا الرجل ولا فائدة دفتره . وجاءنا رجل آخر يطلب البقشيش لأنه دق أجراس الترحيب بنا يوم وصولنا . وما كنا نعرف أن الأجراس تدق للترحيب فهى فى بلادنا تدق لمسير القوافل ، وهى فى بلاد النصارى تدق للعبادة . ولكننا أعطيناه على كل حال ما أراده

ثم جاء رجل آخر يقول إنه مندوب جريدة وأن مهمته أن يسجل أسماء الذين يزورون قصر الملك وينشر هذه الأسماء في ورقة كبيرة يبيعها ، ولا أعرف لماذا يشترى الناس هذه الأوراق ! وقال إن مهمته اختيارية فلم يكلفه أحد بها ، وأن من يدفع له مالاً يكافأ بكتابة اسمه فى الجريدة . ومن لا يدفع يعاقب باهمال اسمه ، فدفع له السفير ما أراد

وقد كانت كل لحظة تمر تزيدنا خبرة بأحوال الانكليز وعاداتهم ، وكلها عجيب غريب ، وكنا نتناقش كل يوم مع المترجم فى كل ما نراه . وفى يوم من الأيام جاءنا المترجم مهرولا وقال : إن اثنين من ملوك الهند سيزورانا اليوم فكدنا نذهل ، وقلنا فى أنفسنا كيف يمكن أن يأتى الملوك للزيارة بغير مقدمة ولا سابقة إنذار . وقمنا إلى النوافذ مسرعين ونحن نتوقع أن نراهما فى مواكب تركب الأفيال . ولكننا لدهشتنا رأينا عربة قذرة فيها رجلان ليس معهما حاشية ولا جنود . وسألنا المترجم كيف يمكن أن يكون هذان الرجلان من الملوك ، فقال إنه من الصعب تفسير الأمور فى وقت قصير وأنه سيشرحها لنا بعد انقضاء الزيارة

وأدركتنا الحيرة فى الطريقة التى يجب أن نستقبلهما بها ؛ فلما جاءا اتضح لنا أنهما فى نهاية البساطة ، ولافرق بينهما وبين أى سوقى فى بلادنا ، وهما يحلقان ذقنيهما كالكفار ويلبسان ثياباً عادية وليس عليهما أى مظهر من مظاهر الوجاهة

ولما انقضت الزيارة نظرنا من النافذة فلم نجد العربة فى انتظارها ويظهر أنها عربة كراء . وسار الملكان على قدميهما ، فقلنا سبحان الله ! أهكذا يكون ملوك الهند القديمة التى يرجع إليها عهد حضارتنا ... الهند ذات الجواهر والأفيال يحكمها أمثال هذين المتشردين !

ثم قال لنا المترجم إن ملوك الهند ليسوا مثل سائر الملوك فان إيراد بلادهم يأخذه الانكليز ، وهم مرؤوسون فى الهند لرجل انكليزى ينوب عن ملك انكلترا وهو مرؤوس هنا لوزير انكليزى لقبه وزير الهند . ولهذا الوزير مجلس يحضره ملوك الهند وهذان الملكان من أعضاء هذا المجلس ، والحق أن هذا الكلام لم يعجبنا ولم نفهمه ، والذى استطعنا أن نقتنع به هو أن الشاه الحقيق فى الهند هو الانكليزى الذى يقولون عنه نائب الملك وأن هؤلاء الملوك ليسوا إلا سفراء له لدى الحكومة الانكليزية مثل فيروز خان سواء بسواء . ولما سألنا عن دينهم فهمنا أنهم يعبدون الشمس والثيران ويأكلون لحم الخنزير

الفصل الرابع والعشرون

ملكة انكلترا

أصبحت الهدايا التى أرسلها السفير إلى ملك الانكليز موضوعاً لحديث أهل المدينة . وعلمنا أن نساء الأمراء واللوردات ذهبن إلى الملكة ليرين الشيلان والجواهر والمصوغات التى أهديناها لها . وعلمنا أن فى القصر الملكى رجلاً برتبة تعادل رتبة خان يؤدى وظيفة التشريفاتى للملكة فلا يقابلها أحد إلا باذنه ، فهو ليس مثل الأغا فى القصر الفارسى وقد وصلتنا دعوة من هذا الخان لزيارة الملكة

وقد كان سفيرنا خائفاً من الذهاب بالرغم من وصول الدعوة إليه ، وسأل المترجم : أليس الواجب أن نستأذن ملك الانكليز؟ فأكد له أنها تستطيع أن ترى كل من تريد رؤيته من الرجال ، وأنه لاداعى إلى الاستئذان . فلما رأى السفير أن هذه عوائدهم حقيقة قبل الدعوة التى موعدها فى اليوم التالى وأخذ الكتاب المرسل إليها من كبيرة زوجات الشاه

وقلنا نحن ذاهبون لنرى زوجة الشاه الانكليزي وبناته وأجمل الجميلات فى الحاشية . وهذا الحظ لا يتفق إلا للقليلين ، فالحمد لله على ذلك . وإذا كان النساء العاديات اللواتى نراهن فى الطريق يحيينا

ويقتلننا كل يوم بروعة جمالهن فكيف تفعل بقلوبنا التى سبت قلب شاه الفرنجستان ؟ إن نظرة واحدة إليها وإلى الأقمار اللواتى حولها ستفتننا وتصبينا

لبس السفير أجمل ثيابه ومشط شعر رأسه ولحيته وتطيب بالمسك . وفعلت مثل ذلك ورفعت شاربىّ حتى وصل طرفاهما إلى عينىّ . وسكبت فى الماء الذى اغتسلت به زجاجة من ماء الورد . وركبنا إلى القصر الملكى فلم يقابلنا إلا الرجال . ولم يبد أى دليل على أن بالمنزل نساء

وأجلسنا فى ردهة مفروشة بأبدع الرياش . وبعد انتظار لحظات ظهرت الثياب النسوية تخطر فيها الجميلات عن بعد وبينهن أمير من أبناء الشاه

ولما وقفنا وتهيأنا لاستقبال الأميرات والأمير تبين أنهن وإياه فى جملة الخدم وأن الأميرات لم يظهرن بعد

ولقد خجلنا من مسلكنا أشد الخجل وعدنا إلى الجلوس؛ ثم ظهر نشريفاتى الملكة ومعه امرأة عجوز قال إنها هى صاحبة الجلالة فدهشنا، لأنه ما الذى يحمل جلالة الملك على البقاء مع عجوز كهذه وفى بلاده آلاف من الصبايا الجميلات ؟ ولقد كانت نظراتها كنظرات الوزراء لا كنظرات النساء، فلا رقة ولا دلال ولكن سطوة وهيبة . وسألت السفير أسئلة لا يلقى مثلها إلا العلماء ، فهى أسئلة صعبة جديرة بأن تحير العالم الحصيف

ولما قدمنا لها خطاب كبيرة زوجات الشاه سألت هل هذا الكتاب مكتوب بخط يدها ؟ فرأيت علامات الخجل على وجه السفير لأن الكتابة ليست من شئون السيدات فى فارس فبماذا كان يستطيع سفيرنا أن يجيب ؟

لقد أجاب بأن الخطاب حرره منشئ الدولة

فلما ترجم هذا القول للملكة ابتسمت، ولكننا لم نفهم هل كان ابتسامها ابتسام إعجاب أم سخرية ؟

ثم عرضت عليها الهدايا فلم يستلفت نظرها بوجه خاص إلا ثياب المرأة الفارسية ، وهى حقاً جديرة بالاعجاب، فهى مطرزة بالذهب المرصع بالأحجار الكريمة . وأخذت الملكة تسأل عن أشياء كثيرة . واجتمع سيدات القصر حول السفير وهو يشرح للملكة كيف تلبس السيدة هذه الثياب ، وأبدى ملاحظات كثيرة عن القميص القصير والجبة النسوية . وقد ضحكن كثيراً بالرغم من وجود الملكة بينهن عند ما رأين أجزاء من الثياب تحشى بالقطن ليظهر مادونها من الجسم كبير الحجم . وأعجبت الملكة بمعرفة الفارسيين وحكمتهم عند ما قدم إليها السفير النصوص التى تمنع السحر والعين والنصوص الأخرى التى تمنع الأمراض والتى تجبر الكسر فى أقل من شهر

ولقد استرعت الملكة اهتمامنا بكثرة أسئلتها حتى شغلتنا عن النظر إلى بناتها الجميلات اللواتى تأنس العين برؤيتهن ويستمتع الخيال بالتفكير فيهن . والحق أنى لم أر عيوناً أشبه بعيون الغزلان من عيون هؤلاء الأميرات ولا أجساداً أشبه بالحرير من أجسادهن

ولما فرغت الملكة من أسئلتها بدأن يسألننا أيضاً ، وكنت كلما وقع نظرى على إحداهن أقول فى نفسى : « ماشاء الله ! عوذت جمالك من عينى باسم الله ! » وأتساءل كيف يرضى رجال هؤلاء الجميلات بسفورهن ، ونصر نحن على إخفاء أوجه نسائنا ؟ وقد سألنا الملكة هل بناتها متزوجات

فأدهشنا حين قالت أنهن لم يتزوجن إلى الآن . وأنى لأعجب من تأخر زواجهن وهن بنات الملك مع أن من تبلغ هذا العمر فى بلادنا تعد بائرة ؟

وقال السفير للمترجم : « لماذا لا يفعل شاهكم مثل شاهنا فينعم على وزرائه ببناته ؟ إن أكبر مكافأة عندنا للوزير أن ينعم عليه الملك بعرس من الأسرة المالكة، وإذا لم يسجد الوزير شكراً للشاه على هذه النعمة فان رأسه تجعل فى الحال مكان رجليه . والحق أن ملوكنا يديرون هذه الشئون أحسن مما يديرها ملوككم

ولما استقصينا فى السؤال وجدنا أن الزواج فى الأسرات المالكة أقرب إلى الزواج عند المسلمين منه عند النصارى ، لأن المحبة ليست شرطاً فى الزواج ولا ضرورة لسابقة المقابلة . ويكفى أن يقول الملك لبنته إنها أصبحت زوجة لأمير ما فتقبل طائعة أو مكرهة؛ وهذا الزواج عندهم يدعونه بالزواج السياسى والحالة مثل هذه مع الزوج من البيوت المالكة

وهمس السفير فى أذن المترجم سائلا : أليس فى هؤلاء السيدات جارية رقيقة للملك فربما كانت الرقيقات توجدن سراً فى قصور الملوك دون غيرهم، فعاد المترجم إلى التأكيد باستحالة وجود الرقيق فى هذه البلاد

سأله السفير : أليس فيهن سريات أو راقصات أو خادمات سرير أو وصائف حمام . فأجاب المترجم بالسلب وهو يبتسم ثم قال : إن هذه الضروب من النساء لا توجد إلا فى القصور الملكية . وإن الرقص فى انكلترا يخالف الرقص فى فارس ، ففى انكلترا يرقص الرجال مع النساء ولا تأخذ الراقصة أجراً ...

ولما قمنا كانت الملكة فى نظرنا أكبر كثيراً مما كنا نظن قبل أن نحادثها، وكان كل يوم يمر بنا يعلمنا شيئاً . وما كان غامضاً أمامنا فى شأن النساء أصبح الآن واضحاً جلياً

الفصل الخامس والعشرون

الصمدة والمأكل

شغلنا بمن يزورهم ويزورونا حتى كدنا ننسى أننا مسلمون وأننا نعيش فى بلاد غير مسلمة ، وأهملنا الوضوء والصلاة بالرغم من أن محمد بك كان ينبهنا كل يوم إلى هذا الواجب . ويؤنبنا على تركه ويحذرنا من أن نصبح مثل الذين يعيشون حولنا ، والذين لا يبدو عليهم أنهم يدينون بأى دين

وكان محمد بك مشتغلاً بالبحث عن الاتجاه الصحيح للكعبة الشريفة ، لأن مباحثه منذ وصلنا إلى انكلترا لم تقنعه . وكانت الأبرة المغنطسة « البوصلة » قد كسرت منه . وأية فائدة ترجى من الصلاة إذا كانت وجوهنا مولاة نحو بقعة قذرة من الأرض لا نحو الكعبة المطهرة ؟

وكان من سوء حظنا أيضاً أننا لم نر الشمس مرة واحدة منذ وصلنا إلى هذه البلاد فتحقق لدينا ما كنا نسمعه فى فارس من أن بلاد الانكليز لا تزورها الشمس

ولما كاد ييأس من معرفة القبلة وكنا جالسين مع السفير أقبل علينا محمد بك وهو يصيح : خبر سار ! لقد ظهرت الشمس . فأطللنا من النافذة ورأينا السحائب خفيفة فى شكل بخار ومن ورائها قرص الشمس ولكنه ليس مشرقاً كالشمس التى تظهر فى سماء فارس ، فان الأخيرة لا يجرؤ إنسان

على التحديق فيها . أما تلك الشمس الانكليزية فان الانسان ينظر إليها ساعة أو ساعتين دون مبالاة كما ننظر فى بلادنا إلى القمر . ولكننا مع ذلك استبشرنا بطلعتها وأخذ بعضنا ينظر إلى البعض ويقول : « مبروك » وعرف محمد بك بالدقة موقع الكعبة :

لكن هذا الحادث دل على أن الانكليز يجهلون كل شيء عن ديننا ، فان الموجودين منهم فى مجلسنا فهموا من فرحنا بظهور الشمس أننا نعبدها . وقال أحدهم ذلك للسفير ، فغضب والتفت إلى وقال : « ما لهؤلاء الانكليز كيف يفهمون ؟ إننا لو كنا نعبد الشمس كما يتصور ، فاننا نستنكف أن نعبد شمسهم هذه التى لا يقوى نورها على اختراق السحاب » والتفت إلى المترجم وقال : « أخبر هذا الميرزا بأن الله لم يرسل نبينا إلا لمحاربة الوثنية »

لكن هذا الميرزا الانكليزى لم يقنعه الجواب وأخذ يجادلنا مستشهداً بتاريخ فارس قبل الاسلام وقد تبين من مناقشته أنه يظن أن الفارسيين لا يزالون على عقائدهم القديمة مع خلاف يسير أدخله المسلمون فى بلادهم . وسألنا ألسنا نقطع رؤوس الخيل تكريماً لظهور الشمس ؟ »

فقال السفير مازحاً : « لو كنا نفعل ذلك فى شمسنا الحارة فاننا فى بلادكم لا نقطع إلا ذيول الخيل

وقد لاحظنا أن الانكليز لا يغضبون من المزاح فان هذا الميرزا الانكليزى ضحك وقال إن الشمس جديرة بأن تعبد على كل حال

ولما رأينا القوم يجهلون ديننا أصررنا على أن نباشر أمور الدين علانية ليفهموا أننا متدينون وأن ديننا محترم ، وعلى ذلك صار أتباعنا يذبحون الذبائح باسم الله على قارعة الطريق ليفهم الانكليز أننا لا نأكل لحم الحيوان الميت كما يأكلونه ، واطمأنت قلوبنا إلى الطعام الذى نأكله أكثر من أى وقت آخر منذ غادرنا البلاد الاسلامية . وصار المؤذن ينادى فى أوقات الصلاة بالأذان الاسلامي . وقال محمد بك إن الصلاة فى هذه البلاد غير الاسلامية أقل بركة منها فى بلاد مسلمة . وأشار علينا بأن نضاعف عدد الصلوات حتى يقبلها الله من هذه الأرض غير الطاهرة

ولكن ملاحظته هذه منعت أكثرنا عن الصلاة بتاتاً ، وقلنا إنه ما دامت البلاد نجسة فما فائدة الصلاة فيها ؟ إذن فلنوفر صلاتنا حتى نعود إلى فارس

وعلى ذكر الصلاة أقول إنه من اليوم الذى ظهرت فيه الشمس فى بلاد الانكليز أمكننا أن نضبط ساعاتنا على الحساب العربى لأننا جعلناها اثنتى عشرة عند الغروب . ومواعيد الصلاة الأخرى معروفة ببعدها وبقربها من هذا الموعد . أما الانكليز فكل شيء عندهم عجيب . والساعات عندهم لها حساب آخر حيث يبدأ يومهم من منتصف النهار

اجترأنا على السير بغير دليل فى طرقات لوندرا بالرغم من استغراب الناس هيئة ثيابنا وتعجبهم منا ، فاننا كنا نبعد كثيراً عن مكان السفارة . وكثيراً ما ضللنا طريق العودة لأن الطرق عندهم كثيرة الشبه فكل البيوت مبنية على نظام واحد . وكل الشوارع باتساع واحد وطول واحد ، ولكنني اهتديت إلى طريقة نأمن بها الضلال فى أى طريق وذلك أنى كنت أحمل معى قطعة من الطباشير فأضع على كل ركن علامة أهتدى بها فى طريق العودة

وفى يوم من الأيام خرجت مع محمد بك وهو كما عرف القراء شديد المحافظة على شعائر الدين . فلما وصلنا إلى حديقة عامة فى ضاحية من ضواحى المدينة ، وقف على الحشائش الخضراء ودعانى إلى الصلاة . وكانت الحديقة غاصة بالغادين والرائحين إذ يظهر أن ذلك اليوم كان عيداً من أعيادهم

فلما نادى محمد بك : « الله أكبر الله أكبر قد قامت الصلاة » اجتمع حولنا كل من فى الحديقة وأخذوا يحملقون فينا ، فلما بلغنا من الصلاة السجود أخرج كل منا قطعة من الطين طاهرة من أرض (كربلاء) ليضع فوقها جبينه . والقراء يعرفون أننا معاشر الفارسيين لا نسجد فوق كل أرض . ولذلك يحمل كل منا فى جيبه قطعة من أرض كربلاء التى قتل فيها الحسين بن على عليهما السلام ليسجد فوقها . وهذه القطعة تصب بشكل جميل وتكتب عليها أسماء الأئمة الاثنى عشر

وإنى أعترف لك بالحقيقة فأقول إنى غير شديد الحرص على الصلاة فأنا لا أصلى إلا إذا كنت فى خطر ، وإلا إذا رأيت من حولى ينتظرون منى أن أصلى . ومن أجل هذه الحلة كان سرورى شديداً بالصلاة أمام هذا العدد الجم من الناس

لكنه لما عدنا إلى الوقوف بعد السجود تركنا قطعتى الطين على الأرض لنعيد السجود عليهما فى الركعات التالية . وبلغ من وقاحة أحد المتفرجين أن مدّ يده فأمسكها وأخذ يريها لمن حوله ، وهو نصرانى نجس ، والقطعة طاهرة مقدسة ، فلم يكن فى وسع محمد بك إلا أن خرج من الصلاة ولطمه على وجهه . وخرجت أنا أيضاً من الصلاة وانتظرت ماذا يكون ، فرمى الانكليزى قطعة الطين وخلع سترته وشمّر عن ذراعيه . وقد فهمت أن حركته هذه عدائية ، بالرغم من أن نزع القبعات علامة على الود بين هؤلاء القوم

وفى هذا الحين مرّ مترجم السفارة فنادينه ليترجم بيننا وبين هذا الرجل . ولشد ما كانت دهشتى عند ما رأيت مترجمنا الانكليزى وقد خلع سترته وقبعته أيضاً وشمر عن ذراعيه ، وتلاكما ملاكمة دلت على الشجاعة من كليهما . فلما تمكن المترجم من إصابة الآخر فى وجهه تصالحا وكأنه لم تكن بينهما حالة عدائية ، وأفهمنا المترجم أنه إنما فعل ذلك بالنيابة عنا ، فشكرناه . وقد كنا نسمع عن كرم العرب فى قرى الضيف ولكننا لم نسمع أن أحداً يلاكم الناس بدلاً من ضيوفه . وهكذا قدر لمحمد بك أن يضرب ولكن على جسم المترجم

وعدنا دون أن نتمم الصلاة إلى دار السفارة وأخبرنا السفير بما حدث فدهش من أخلاق المترجم

الفصل السادس والعشرون

البرلمان الانكليزى

فى ذلك الوقت كان فى المدينة حركة غير عادية لم يبق فرد واحد من الانكليز لم يهتم بها ، فخلت البيوت ممن فيها وازدحمت بهم الشوارع حتى صار من الصعب أن يجد المرء لنفسه مكاناً بين الطرقات . فذكرتنا هذه الحالة بعودة الشاه إلى طهران من غزوة أو رحلة طويلة . وسألنا عن السبب فسمعنا إجابات مختلفة

قيل لنا إن أكبر مجلس فى الدولة سيعقد اليوم ، وقيل إنه بالرغم من أن للبلاد ألف كتاب وكتاب فى القانون فانهم لا يزالون بحاجة إلى قوانين

جديدة . وقد حمدنا الله عند ذلك على كمال ديننا فانه ليس لنا إلا قانون واحد هو القرآن وليس فيه تفريط فى شىء . فلسنا فى حاجة إذن إلى أى قانون آخر . وقيل إن هذا المجلس سيجتمع ليحاسب الشاه الانكليزى ووزراءه على النفقات التى ينفقونها. والحق أنه لو اجتمع فى بلادنا أناس ليحاسبوا الشاه على نفقاته لنصبت لهم المشانق ... وقيل بل اجتمع هذا المجلس للبحث فى مسألة ما زالوا يبحثونها منذ مائة عام دون أن يتقدموا خطوة واحدة ، وهذه المسألة هى هل تبقى إرلندا خاضعة لحكم الانكليز أم يتركونها ؟ وإرلندا هذه جزيرة أخرى تريد أن تنفصل عن حكمهم وهم لا يقررون تركها أو البقاء فيها بل يجتمع مجلسهم منذ مائة عام للنظر فى هذا الطلب . وفى هذه الجزيرة سبعة ملايين من الناس يموتون وينشأ بدلهم مثل عددهم وهم راضون عن إرجاء طلبهم كل هذا الأجل . ونحن لا نعرف لماذا يسلك الانكليز أو الارلنديون هذا المسلك ؟

وقد عول السفير على أن يعرف عن هذا المجلس كل ما تستطاع معرفته ليكتب عنه إلى الشاه ليدرك الفرق بين قوة سطوته وضعف الملوك فى الفرنجستان

وأنى لأعجب كيف يستطيع القضاة مباشرة الحكم مع كثرة هذه القوانين ! وهل إذا انتقل قاض من بلدة إلى بلدة يأخذ معه عشرين أو ثلاثين جملا محملة بالقوانين

وإنى لأتساءل أيضاً ما فائدة الملك وما الحكمة من وجوده إذا كان لا ينفق شيئاً إلا حاسبه الناس على ما أنفق ؟ وبالرغم من هذا المسلك السيئ الذى يسلكه المجلس مع الملك فقد علمنا أنه سيذهب عند انعقاده راضياً ليلقى فيه خطبة العرش . ويقولون إن المجلس إذا لم يرض عن هذه الخطبة فان الملك يكون مضطراً عندئذ إلى طرد وزرائه

وصلت الدعوة إلى السفير لحضور هذا الاجتماع فقبلها مسروراً . ولكن الدعوة كانت قاصرة على اثنين فقط هو ومترجمه . ولذلك حرمت أنا وسائر أعضاء السفارة من رؤية هذا الاجتماع . واكتفينا بأن نقف فى الطرق لنرى موكب الملك وهو سائر إلى هذا المجلس . وما كان أفخم هذا الموكب ! لقد كان فيه كل القواد والوزراء ونخبة من كل فرقة عسكرية برية أو بحرية . ولا أعرف كيف يمكن التوفيق بين إجلال الملك باظهار الولاء له وبين اضطهاده ومحاسبته على النفقات وحرمانه من سلطة الحكم ؟

وقفنا تحت ظل شجرة ، وكان الزحام حولنا شديداً فاسترعينا أنظار الناس حتى انصرف الكثير منهم عن النظر إلى الموكب إلى النظر نحونا

وقبل ظهور الملك سمعنا هتافاً غريباً يشبه نواح النساء عندنا ، ولكننا فهمنا أنهم يريدون به التحية . والغريب أن هذا الشعب متفان فى حب ملكه وأنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يترك له شيئاً من الحكم

ولما لم تبق إلا خطوات على عربات الملك صعدنا على الشجرة متسلقين لنتمكن من مشاهدته فأسرع الناس إلى إنزالنا وكاد يحدث ما لا تحمد عقباه لولا أن أحد الواقفين عرفنا — على ما يظهر — فشفع وقال إنه مهما يكن ما نفعله فانه صادر عن الجهل ، ثم شيعنا إلى المنزل وأفهمنا أن الذى فعلناه أمر كبير فى هذه البلاد . وسألناه لماذا يعامل الانكليز هذه المعاملة ؟ فقال إن الشعوب لا تدرك الحقائق كما هى فاذا حارب الجيش وانتصر نسبوا ذلك إلى

الملك ، وإذا غلا الخبز نسبوا غلاءه إلى الملك ، وإذا نشبت الحرب نسبوها إلى الملك . ولذلك كان واجب الحكومات يقضي بالحرص على عرش الملك ويمنع حدوث الثورة ، وذلك إنما يكون بجعل سلطة الملك محدودة واضحة الحدود فلا ينسب إليه ما لا يمكن دفعه من الطوارىء وما ليس يجوز أن تنسب مسئوليته إليه

قلت : « هل ترى لحيتي هذه ؟ »

فقال : « نعم »

قلت : « إذن فأنا أقسم بها وما أقسم بشيء أقدس منها ، إننا لو وضعنا شاهنا في مثل هذا المركز الذي وضعتم فيه شاهكم لحدثت مذبحة عامة لا يمكن أن تنتهي بخير »

فقال : « إن من الخطأ أن توازن بين انكلترا وبين إيران »

ولما عاد السفير من حفلة افتتاح البرلمان وصف لنا هذه الحفلة فقال: ان الملك ظهر في حلة مزركشة بالذهب وعلى صدره النياشين المجوهرة ، وكذلك كان وزراؤه وأصحاب الألقاب ، وكانوا كلهم حليق اللحى والشوارب كأنهم نساء . وأقسم أنني أحببتهم جميعاً وأن جلودهم أبيض من الثلج وعيونهم تقتل وابتساماتهم تفتن وتسحر

وقد كان بين المتفرجين سيدات لا أستطيع وصفهن . وبالرغم من معرفتنا بسفيرنا معرفة جيدة فاننا لم نسمعه قط يتكلم بمثل هذا اللسان . وقد كنا نسمع أنه إن أحب فالنار تشتعل عندئذ في فؤاده

وقد قال أحد شعرائنا متى أحب الانسان فانه يفيض رقة ولو كان من أغلظ الناس . وأقسم أن السفير عاد من حفلة افتتاح البرلمان وعيناه تنطقان بالرقة والوداعة

«يتبع»

عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠	السنة الأولى في مجلد واحد
٧٠	كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧)